
رواية
منال القاضي
المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

رغبــات خفــية

منال القاضى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

القاضى، منال
رغبات خفية / تأليف : منال القاضى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط ١ ــ ٢٠٠٨
١٦٨ ص، ٢٤ سم
١ ــ العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ١٩٨٦١ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 977- 437 - 906 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel.: 27352396 **Fax:** 27358084

الفهرس

الفصـــل الأول

(١)

تنقلت صفية هونج من غرف البيت وممراته.

كان نورى معها أثناء الجولة، ثم اختفى. وصلت إلى الحديقة عبر سلم حجرى.

كان هناك، يكلم حبيبة، مالكة البيت الحسناء وكانت تضحك.

اقتربت منها وعبرت عن رغبتها الشديدة فى استئجار البيت بجمل عربية وصينية.

رحبت حبيبة ولم يعلق نورى.

عرفت ما به من شحوبه، لقد أحب المالكة الحلوة، فهل غارت؟

كان هذا منذ أربع سنوات.

الآن تأكدت، لقد غارت، فالحب أقوى من الصداقة، ويولد فى لحظات كالعاصفة.

لم تجد عيبا فيها، كانت حبيبة مثل الفجر، تفتح القلب بابتسامة.

لقد انجذب للمرأة الخطأ وهو غارق لا محالة فى الوهم والألم.

لم تنبهه، وفكرت فى قصيدة كوان هان كينج، التى كتبها منذ قرون فى شيخوخته، معلنا عدم استسلامه، حتى لو فقد أسنانه وفمه وساقاه وذراعاه وأصيب بأسوأ العاهات.

ليكن ميلاد زائف ولكن شجاعته حقيقية. من حقه المقاومة وعدم الاستسلام.

***

أقامت صفية هونج فى القاهرة أطول مما قدرت بفضل نورى وشوكت والبيت.

حبها للبيت لا تعرف سره، ولكن صداقتها لهما بدأت حين أعادا اسمها الأصلى للحياة. رفضا التقليد الصينى الذى جعلها تلصق اسمًا أجنبيًا بهونج سنوات وتغيره وفق البلد الذى تعمل به؛ فهى ديانا هونج فى لندن وفرنسوا هونج فى باريس وصفية هونج فى القاهرة.

اتفقا أنها لن تكون سعيدة تحت مظلة اسم آخر. هونج حقيقتها وبلدها وذاكرتها.

أصر شوكت أن الاسم كيان، جادله نورى؛ فالأسماء لافتات وضعت على الطريق ولا ترشد إلى شيء. استسلم حين لاحظ وجهها يتلون بفرح طفولى عند نطق هونج.

عرفت نورى كعازف كمان فى الفندق الذى تعمل به وتنسق أكاليله وباقاته وفق كل مناسبة، ولكن صداقتهما بدأت بعد أن استمعت إلى لحنة المدهش. النغمة الأولى جعلتها تحلق وتندهش وتتألم. أوغل فى العزف فشعرت أنها تتخلص من أثقال المادة وتتحرر، ختمها بجملة موسيقية استوحاها من الجنة والنار.

أما شوكت فهى تتردد على محله فى خان الخليلى، تنتقى المزهريات التى تبرز جمال أزهارها.

أخبرها أنه يبتكر الكاريكاتير، ليقوم أسطوات ورشته بنقله فوق المكاحل والمزهريات والعلب الصدفية، تعمقت علاقتها به حين تسلل رسمه إلى أعماقها.

رغم صداقتها لكليهما، دب التنافر والاختلاف بينهما منذ الوهلة الأولى.

كان عليها كى تحتفظ بهما سويًا أن تتقمص شخصية لاعبى الشطرنج.

وتتعامل بفن وسياسة وحكمة ودهاء وحزم مع محاولات كل منهما لإخراج الآخر من حياتها.

لقد نجحت.

(٢)

زار نورى الصين فى الثمانينيات قبل أحداث ميدان تيان آن مـين بعـامين. وعزف فى شنغهاى أشهر المقطوعات الشعبية هناك على آلة الأرهو.

تذوق الطعم الصينى، وعرف الكثير عنه، ولذلك حين دعته هونج للغداء فى البيت، كانت تعرف بالتحديد ما يحب.

واستقرت على ما يلى:

١ – شراب الماو تاى

٢ – البط البيكينى من مطبخ شاندونج

٣ – الكابوريا والخضار من مطبخ هوايانج

٤ – الأصناف الحارة من مطبخ سيتشوان

خلفية من زهور الأقحوان والصنوبر الأسود.

رتبت كل شىء، وبدأت تتجول فى الحديقة انتظارًا لوصوله.

تجاوزت التمساح المرمرى والبحيرة وشجرة السنط، إلى الصخور والجسور والشلالات والزهور التى غرستها وتفتحت.

عملت طوال أربع سنوات حتى عادت البهجة للمكان.

انبثق رذاذ الماء من فم التمساح، وتدفق من الشلالات والنـافورة، وتلونـت الثمار والأزهار.

وحين وجدت الحديقة التى فى خيالها. دفنت خصلات من شعر ابنها تـشانج أسفل شجرة السنط، كى تسكن روحه المكان.

يمات فى ميدان تيان آن مين ببكين منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.

قبلها قبلة خاطفة، ووعدها بأخرى عند عودته.

أقنعها أنه يسعى من أجل حريته. سعى معه أكثر من مليون شخص.

قال لها صديقه الناجى من الأحداث، وهو يبلغها الخبر، "إنه محظوظ، من لم يمت ساعتها، لن يعيش بعد ذلك".

واستها تلك الكلمات سنوات، ولكن فى العام الماضى التقت بهذا الصديق فى أحد الفنادق القاهرية الكبرى، يتناول عشاءه على ضوء الثريا البلورية المتناثرة بين أحبال من الورود البيضاء.

تزوج وأنجب، وصار عضوًا ناشطًا فى الحزب الشيوعى الصينى، ومندوبًا عن حكومته لبحث سبل التعاون بين مصر والصين.

قال: "أشعر بتوازن أكثر، ليت تشانج عاش وتعلم الدرس، أن يعيش بلا أفكار مستحيلة العمل والواقعية أفضل ما فى الحياة".

(٣)

فى طريقه إلى هونج فكر نورى، كم قصة حكاها عن لحنه؟! لكــل امــرأة قصة.

حبيبة استمعت للحن منذ أكثر من أربع سنوات، فى أثناء عشائها بالفندق.

أعطته وردة بيضاء، فكلمها عن فتاة لها سحر الموسيقى ألهمته اللحن.

أراد أن يبدو أمامها، أكثر رومانسية، وأقل جنونًا من حقيقته.

أخفى بصعوبة آراءه الصادمة؛ فالحب وحده لا يلهم، ولكنــه الــشوق إلــى المستحيل. أما هونج فكلمها عن بيت تركه منذ زمن بعيد، ليصاحب الغجر.

أكمل حكايته:

لم يكن وحده آنذاك، سكن معه أب عجوز.

كان يمسك يده الصغيرة، وتتوقف الكلمات علــى طــرف لــسانه، يحــسب السنوات الكثيرة التى بينهما. ابن فى عمر حفيده، أى جنية وهبتــه هــذا الابــن؟! يسرح ببصره، ولا يبدو أنه يتذكر ليلة زواجه ولا زوجته. تتحرك الأحــداث فــى ذاكرته الضبابية كضوء أو بقعة معتمة.

اكتشف عازف الكمان حين قدر له أن يترك البيت الكبير، أنه قضى الوقــت هناك دون اسم أو عمر.

لولا الجوع لما تركه. كان أبوه العجوز بالخارج. أشرقت الشمس مــرتين، ولم يعد.

حاول أن يتسلى عن غيابه بعزف الكمان. وفى النهاية تغلبت رغبتــه فــى الحياة على خوفه. فتح الباب الخلفى، وهناك وجدهم: جماعة من الغجــر نــصبوا خيامهم فى الحديقة الخلفية. بدوا مندهشين حين رأوه قادمًــا نحــوهم مــن البيــت

المهجور. أسعفوه بكوب لبن قبل أن يفقد الوعى. اعتبروا بقاءه حيًا معجزة تفوق معجزة استمرارهم فى الحياة منذ قرون.

سألوه عن اسمه وحكايته، لم يفهمهم، فلم يكن أبوه يتكلم معه كثيرًا.

كان قاموسه اللغوى خاويًا. والعجوز لم يناده بأى اسم.

اختفى داخل البيت، وعاد بالكمان، وبدأ العزف.

تحلقوا حوله يرقصون. الكمان جعلهم يتفاهمون. أحب الغجر، فبداخل كل منهم أغنية لبيت يحلمون به، وحين تعلم لغتهم السرية تفنن فى وصف البيت الذى تركه: الأثاث، الأغطية، المفارش، الصنابير.

كانوا ينصتون إليه في ذهول، كأنما يروى بطولات بطل شعبي. ليس بطلاً من دم ولحم، ولكنه من طوب ونوافذ وأبواب.

يسألونه هل كان سعيدًا فى هذا البيت؟ هل كان أبوك العجوز يحبك؟ أواثق أنك لا تريد العودة؟

كانت العودة مستحيلة، ليس لأنه أحب الحياة الغجرية ولا للمسافة التى بعدت أو السنوات الكثيرة التى مرت، ولكنه لم يكن واثقًا أن البيت الذى تركه هو نفسه الذى حكى عنه، وجعله أغنية يرددها الغجر فى الليالى المقمرة.

انفعلت هونج بالقصة، وسرحت بعيدًا.

(٤)

هناك مظاهرة. لم ير شوكت سوى طابور من السيارات المنتظرة؛ عاد إلى سيارته، أمسك ورقًا وقلمًا، وحاول رسم ما لم يره.

استعار للاشتراكيين والناصريين والشيوعيين والليبراليين والأصوليين وأعضاء حركة كفاية وجوهًا تصدرت الصحف في الأيام السابقة استعدادًا للانتخابات الرئاسية.

رسمهم يدخلون نفقًا مظلمًا. أمسك بيد هونج بعيدًا عن النفق.

عبر الكاريكاتير عن أحلامه، إحباطاته الشخصية، وإن كان قد عكس معانى أعمق وأبعد.

فعل ذلك دون قصد.

كان مثل ضحكة كبيرة، وأراد أن يستمر كذلك. رغم أنه ضبط نفسه أكثر من مرة الشهر الماضى يمسح دموعه.

فكر فى هونج.

سأله صوت خفى "هل تحبها؟".

جادل: "المسألة ليست حبًا، من الممكن أن تسميه ارتياحًا، عشرة".

عادت أعماقه تخاطبه:"ولماذا لا تسميه حبًا، ألم تفتح لها قلبك؟ هل تفتح قلبك فى بساطة لأى امرأة؟"

شعر بالحزن والخطر؛ فلو كان يحبها فمن الممكن أن يكرهها، كما حدث مع طليقته.

تراءت له زوجته السابقة، وبدت مثل أثر بعيد.

أرادت ترويضه، أن تخلق منه رجلاً، مثل ملايين الرجال، الذين يزحمــون الشوارع والأوتوبيسات،، ويدورون حول أنفسهم من أجل أسرهم.

تلك هى الرجولة كما تراها، أن يفنى ويذوب ويحترق من أجل الأسرة. كان الإلهام يختنق داخل البيت، الأفكار والصور تأتيه، وتختفى قبل أن ينتبه.

أدرك الخطر حين رسم أحد شخوصه الكاريكاتورية يومًا دون وجه: خطان مستقيمان ونقاط متناثرة.

نسى برهة كيف يرسم الوجه، وكيف يتصيد الملامح.

ثم وصل إلى مفترق الطــرق، حــين اكتــشف أن كنــزه مــن الملامــح والشخصيات التى ادخرها طيلة سنوات عمره تنتحر أمامه صارخة، ومتوســلة أن يجد لها حلاً.

كان يراقب زوجته تنتقل بين أوانى الطهى، تخبط الملاعــق، تقــشر الثــوم والبصل.

يرفع سبابته، حاجبيه، ويتهيأ ليقول: اسمعى يا...

نظرت إليه ذات يوم شذرًا قبل أن ينطق، وقالت: "اسمع أنت، لقد انتهى كل شيء أنت لا تصلح زوجًا أو أبًا. وضعت الملاعق، الثوم، البصل، الفلفل.

حملت ابنهما بيد وحقيبة ملابسها بأخرى "ابعث لى ورقتى"

تنفس الصعداء، استمتع بالفوضى أيامًا وبالشخصيات الكاريكاتوريــة التــى تهافتت عليه، واستوحى حركاتها، وتعليقاتها من زوجته التى اعتبرها سابقة لحظــة خروجها من البيت.

أحس بعد فترة أنه ليس سعيدًا بالحرية والفوضى، وخاصة بعد أن بعثت إليه زوجته السابقة رسالة مقتضبة، تخبره فيها أنها ترفض كل محاولات الصلح.

وهو لم يحاول التصالح، ولم يكن ينوى.

آلمه الجزء الثانى من الرسالة "لا تحاول رؤية الولد".

حقًا الألم ضرورى للفنان، ولكن ليس إلى درجة اقتلاع القلب.

(٥)

حذرها شوكت منه، فعيناه المستديرتان وأنفه المعقوف يؤكد خبثه ومكـره. لهذا يجب اتقاء شره ليس بالحذر والمداهنة كما يفعل الناس مع الأشـرار، ولكـن بغلق الباب فى وجهه.

ولكن هونج كانت ترى نورى بطريقة مختلفة، فموسياقاه تـذكرها بتـشانج وأحلامه الموسيقية. كان يتمنى أن يعيد اكتشاف الموسيقى الصينية وتعريف العـالم بها.

بدا لها نورى كطفل مذعور من سعة العالم. يحاول دون جدوى التكيف مـع غرائبه وقسوته.

اكتشفت ذلك يوم دعته للغداء، بعد أن كشف لها سره. وحكى لها كيف تخلى عن ابنه منذ أكثر من ثلاثين عامًا. وكلمها عن الهندية الحمراء التى تزوجها.

كانت مشاعره تجاه زوجته السابقة واضحة. الحـب انتهـى، ولكـن منـذ أسبوعين رآها على شاشة السى إن إن، تتظاهر أمام بوابة البيت الأبيض، احتجاجًا على الحرب ضد العراق. قالوا إنها مقيمة هناك منذ أيام، كانت ترفع صورة ابنها، وتصرخ

"بوش أعد لى ابنى"

أعجبته شجاعتها.

"أواثق أنها هى"

باغته سؤال هونج. الولد فى الصورة، له نفس ذقنه وأنفه وعيناه الـشبيهتان بثقبين.

المرأة تغيرت عن التى شاهدها منذ سنوات ترقص علـــي ضـــفاف النهـــر الأحمر.

الوجه انكمش، اليدان معروقتان، ولكن الطلة كما هـــى. تعكـــس تـــصميمًا وصلابة ولا تخفى رعبًا من المجهول.

"سأسافر... لابد...".

الفصـــل الثانى

(١)

لم يتوقع شوكت أن يرى وداد بهذه الهيئة بعد ثلاث سنوات من الطلاق، اختفت فيها خلف الأبواب.

فطوال زياراته الأسبوعية لابنه يوسف، لم يطالعه منها سوى صورة معلقة فى صالون عائلتها.

كان يتخيلها طوال الزيارة تتنقل هنا وهناك، فى كل ركن من الشقة عدا الصالون.

تهمس وتضحك وتفكر فى رجال غيره، أكثر رجولة منه، غارقون فى خيالات جريئة تدور حولها.

كانت هذه الخواطر مثل مخلب فى حياته، وخاصة أنها تتعلق بامرأة كانت ذات يومٍ ملكًا له، ومازالت تتسلل إلى أحلامه، فيستسيقظ فزعًا لأنها لم تعد جزءًا من واقعه.

أحيانًا يشتاق إليها، ويتسامح مع شراستها ومشاجرتها اللانهائية، ويشك فى ظلمه لها ومبالغته فى تصوير مساوئها، ولكنه يعود سريعًا إلى سابق رأيه؛ فهى نكدية بالسليقة، والنجاة منها معجزة.

دخلت وداد الصالون بدلاً من يوسف هذه المرة، مسدلة النقاب، مرتدية عباءة سوداء.

أغلقت الباب والتفتت إليه.

***

قبل توجهه إلى بيت طليقته، كان شوكت ينهى كاريكاتيرًا جديـدًا: بهلـوان يستند إلى حائط مهدم ويضحك حشدًا من الناس. الناس غارقون فى الـضحك، إلا واحدًا أو اثنين... ثلاثة على الأكثر، يصرخون، يشيرون إلى الحائط، ويحـاولون تحذير البهلوان.

عند عودته عدل الكاريكاتير، جعل الحائط أكثر مـيلاً واسـتبدل بملامـح البهلوان ملامحه وهو يستعيد لقاءه بوداد.

استهلت وداد كلامها بالاستغفار والثناء على رسول الله وبيان فضل المغفرة والعفو.

"اغفر لى، لقد أخفيت عنك، أردت أن أريحك من المـسئولية، ولكـن الآن يجب أن تعرف. لم يكن زواجنا موفقًا، فطبيعى أن تكون ثمرته علامـة اسـتفهام. يوسف ابننا مريض بمرض اسمه "التوحد"، لقد أخفيت عنك كما قلت، ولكن العفـو عند المقدرة من شيم المؤمنين.ومرضه هذا غريب، يحتاج إلى متابعتك وصـبرك وتحملك.أنا لا وقت لدى ولكن البركة فيك".

لم يفهم شوكت ما يقال، وشعر كأنه دخل إحدى شطحاته الخيالية؛ فـالمرأة المتشحة بالسواد أمامه لا يمكن أن تكون وداد الحلوة، المحبة للحياة.

الصوت ليس صوتها، والعينان مظلمتان، أراد أن يتأكد.

"أرينى وجهك"

"لا يمكن فأنت الآن رجل غريب"

"وكيف أعرف أنك وداد؟"

فقدت أعصابها "اسمع يا شوكت، هذا ليس وقت مهاترات، الولـــد مـــريض بالتوحد كما قلت، وحالته تجعله فى دنيا غير الدنيا، فلا هو يفهـــم النـــاس ولا هـــم يفهمونه، والكلمات البسيطة التى نتبادلها الآن وغضبى ودهشتك بالنسبة إليه لغـــز، وهو لغز معقد لا أفهمه ولا وقت لدى كى أفهمه. أريـــدك أن تتحمـــل المـــسئولية، وتقسم لى على المصحف كى أطمئن".

استفسر مقاومًا غيرته

"لماذا لا وقت لديك، هل ستتزوجين؟ توقعت هذا قبل الآن بوقت طويل"

ابتل طرف النقاب؛ فهل تبكى؟

"احلف"

"لن أحلف... تريدين الزواج؟"

سمع آهة اختفت بسرعة، جلست وداد، وأغمضت عينيها.

توقع أن تقول "هذا حقى، أليس حقى؟ هل تتوقع أن أعيش راهبة من أجـــل ابنك؟"

ولكنها لم تفعل، فتحت قلبها، وقالت الحقيقة، وكانت مؤلمة ككل الحقائق.

عارضها: "أنت كاذبة".

كررت "سأموت خلال أيام أو أسابيع".

اكتسبت نبرتها ترفعًا عن الدنيا.

"احلف أرجوك".

لم تنتظر أيامًا أو أسابيع، ماتت فى ذلك اليوم، قبل أن ينتصف الليل.

(٢)

كان نورى يعشق السفر والترحال، حتى بعد استقراره فى القاهرة سنوات.

الآن عادت إليه نفسه بعودته للسفر.

ارتفعت به الطائرة المتجهة إلى أمريكا، رأى حياته كأسطورة غجرية.

كانت جيرالدين جزءًا من الأسطورة، رغم إنكاره ذلك.

التقيا على ضفاف النهر الأحمر.

لمحته الهندية الحمراء حفيدة الكادو وهى ترقص للفجر وتغنى أغنية أزلية. توقفت عن الغناء والرقص، وأمسكت به كالقدر.

ولأنها قابلته بعد سنوات كثيرة من الوحدة، وجدتها فرصة لتحكى له أحلامًا وأسرارًا لم تبح بها لأحد.

فقد كرَّست حياتها لهدف واحد، هو إحياء حضارة الهنود الحمر وجمع تراثهم. نسيت حقها فى الحب والحياة.

لم يكن الرجل الأول، ولكنه أهم الرجال، وأكثرهم صدقًا، ولذلك رسمت له بيت أجدادها الكبير بحوائطه وأبسطته المجدولة من الحشائش.

بكت وضحكت بين يديه، وأقنعته أن ما بينهما حب.

وحين تبخرت المشاعر واللهفة والدهشة، وظهرت الأخطاء والنواقص، وبدا حبهما غلطة واستمرارهما معًا خطيئة، أصبحت الحياة لا تطاق.

ولكن ظل زواجهما متماسكًا ثلاث سنوات، جمعهما التشابه بين الغجر والهنود الحمر. الشعور بالظلم ومداهنة الظالم، التشبث بالحياة والأسرار والحكايات، وبيت يقيمه كل منهما فى خياله لا يشبه بيتهما الإسمنتى فى نيوأوليانز، ووسوسة من التكنولوجيا والأجهزة الحديثة.

كانت جيرالدين أكثر وسوسة منه، كلما قرأت عن جهاز جديد تستيقظ ليلتها فزعًا وتوقظه:

"حلمت بجهاز يصور الأحلام والمشاعر وخيالاتنا السرية. كان كهنة التكنولوجيا فى كل مكان بجهازهم لتعريتنا، ولإحكام الحصار علينا بأساليب ودودة ووحشية، كى نكف عن الحلم والخيال والشعور. كنت لا أستطيع الامتثال؛ لأن هذه هى أسلحتى، آدميتى، أملى، ومع ذلك أحاول الامتثال من شدة الخوف".

كان نورى يضمها ويُهدِئها ويطمئنها، ويهمس فى أذنيها، ويشعر للحظة أن الحب عاد ليجمعهما.... أم هو الخوف!!!

(٣)

بدت العلب الإسمنتية المحيطة بالفندق أكثر بؤسًا، الأنوار مطفأة والنوافذ مغلقة، كأنما يعلن قاطنوها انسحابهم لرواده وأضوائه.

فى الماضى كانت بهجة الأضواء تدهشهم، فيتطلعون إليها ويحلمون بها، وعندما أدركوا أن حياتهم لن تتغير أو تتأثر بهذا الوهج، وعجزوا أن يصيروا جزءًا منه، أداروا ظهورهم له وللدنيا.

لم تخطر لشوكت هذه الأفكار من قبل، ولكن لأنه فى أزمة، بسبب موت وداد المفاجئ منذ يومين، بدأ يرى أشياء كثيرة لأول مرة.

كان حضور حفل الزفاف الذى لا يعرف أصحابه محاولة من هونج، كى تخرجه من الأزمة. فقد صممت ديكوراته ودعت إليه من تختاره رفيقًا.

أعطته الدعوة المكتوبة على سبيكة من الفضة؛ واتفقا أن يلتقيا هناك. كان الحفل صاخبًا، بحث عنها ولم يجدها، قرر أن يقضى الوقت صامتًا أو ينسحب، لولا سؤال ورد من امرأة انتقلت من مائدة مجاورة وجلست إلى يمينه. كانت بلا عمر، مزينة بالأحجار البراقة، يتدلى من شعرها الأبيض خصلات ذهبية، يتلون وجهها بمساحيق كثيفة، وترتدى ثوبًا أحمر لامعًا يخرج لسانه للزمن. لم يخبرها بأزمته، ولكنها عرفت.

قالت: "أعمل خبيرة فى قراءة حركات الشفاه منذ أكثر من ثلاثين عامًا" .

لم يفهم.

أشارت دون مقدمات إلى رجل وامرأة "أنهما يتفقان على موعد، هى تحبه، ولكنه يخدعها".

سألته: "هل تحب كرة القدم؟"

تذكر طفولته، كان نقطة ضعف فى فريقه، يجرى ويتصبب عرقًا ولا يحرز أهدافًا، لكن عمله كتاجر علَّمه أن لا يجاهر برأيه فى عالم مجنون بالكرة؛ لأنه حين فعل ذلك ذهب زبائن كثيرون ولم يعودوا أبدًا.

قالت: "أنا أعشقها حتى الموت، سأحكى لك قصة تبين أهمية مهنتى".

فى مباراة دولية، طُرد لاعب كبير ضرب آخر، كان السؤال هل سب المضروب الضارب أم لا؟!

استدعونى، ورأيت شريطًا مسجلاً للمباراة، وأدركت الحقيقة.

هل تنصت؟

التفت بحثًا عن هونج دون جدوى.

عادت تقول "السؤال الآن، وقد عرفت الحقيقة، هل أذيعها، أنت تعرف مجانين الكرة، من الممكن أن تثأر الجماهير من اللاعب الذى سبَّ، والجماهير المقابلة من الضارب، فماذا أفعل؟

أشارت إلى رجل قام لينصرف "إنه طبيب نفسى، جعله زبائنه مرفأ لهمومهم طوال أربعين عامًا، وحين تراكمت ملايينه التى كانت أموالهم، أحس بالغبن والندم، ماذا تفعل الملايين فى دنيا مليئة بالهموم؟!"

نعود لحكاية اللاعبين الضارب والمضروب، إن هذا ما يجعل مهنتى خطرة ومثيرة، هل أقول أم لا أقول؟!

أنا أتسلى بحركة شفاه الناس، وأعرف حكايتهم، ولا أفشى أسرارهم إلا نادرًا، ولكن حين يتعلق الأمر بالعمل، وأكلف بمهمة يجب أن أقول الحقيقة.

المشكلة بدأت بعد أن فهمت الناس؛ فالصدق والنزاهة قد يساء فهمهما"

سكتت فجأة، ثم قالت: "لقد أخبرتك بالقصة، أما نهايتها فسر مهنى، هل وجدت صديقتك؟"

صفقت العجوز للعروسين.

"العروس لا أعرفها، التقيت بها مصادفة فى شرم الشيخ، ونبهتها إلى كلمة حب على شفتى رجل لم تلحظه.

وبعد شهرين تلقيت دعوة زفافهما، مهنتى تجلب الفرح أحيانًا"

صفقت، قامت ورقصت، جذبته من يده، وأدخلته فى دائرة الراقصين

داروا ودار شوكت معهم حتى الفجر.

(٤)

لماذا تخلفت هونج عن العرس، سؤال خطر لشوكت فور استيقاظه فى اليوم التالى.

كانت هونج فى طريقها إلى الفندق، تستعرض تفاصيل ديكور العرس فـــى رأسها. استوقفتها مظاهرة: نفر قليل يحملون لافتات، يغنون ويهتفون، تحيط بهـــم جموع من المتفرجين.

توقف الطريق، انضمت هونج للمتفرجين، وتسلت بقــراءة اللافتـــات فـــى اختبار صعب لعربيتها. توقفت عند لافتة كتبت بالحبر الأسود، وحملها مجموعـــة من الشباب "منطقة محررة".

حاولت مواصلة طريقها كى لا تتأخر ولم تتمكن. ازداد الأمر ســـوءًا مـــع وصول العسكر.

كانوا يرتدون زيًا أسود.

علا الصراخ والغناء وامتلأ الجو بالتوتر.

أحست هونج بروح ابنها تشانج ترفرف حول المتظاهرين.

قال وهو يودعها إلى ميدان تيان آن مين، لينضم إلى مظاهرة المليون، الذين اصطفوا فى مواجهة صـــورة ماوتـــسى الكبيـــرة المنـــصوبة هنـــاك، مطـــالبين بالديموقراطية، إنه ذاهب ليتخلص من أغلاله.

قلدت هونج الهتافات التي سمعتها، كانت تريد فهم اللحظات الهامة فى حيـــاة تشانج.

اقترب منها أحد الجنود، بدا مترددًا، أمسكها آخر.

حاولت هونج التخلص من قبضته، تلاقت النظرات، امرأة صينية جاوزت الخمسين، وجندى مصرى فى مقتبل العمر.

"لماذا تمسك بى؟" قالتها بالصينية.

قادها إلى شارع جانبى وأفلتها.

"آسف" قالها بلهجة صعيدية.

كانت لحظة تواصل إنسانى، فى غاية من الألم.

****

وصلت الفندق حوالى السابعة مساءً. وضعت اللمسات الأخيرة فى ديكور العرس، ثم هجمت عليها الآلام والدموع.

شعرت بالدوار، تراخت وضعفت واسترجعت ما حدث: تجمهر العسكر، الهتافات، اللافتات، إفلاتها بتواصل إنسانى مع جندى مجهول.

كانت الصور تتتابع كالومضات فى عقلها، وتهيج مشاعرها من جديد.

شعرت بروح ابنها تشانج تقودها فى هذه اللحظات الصعبة. فكرت فى خصلات شعره المدفونة أسفل شجرة السنط. لم تحضر العرس؛ لأنها أحست بقوة لا إرادية تدفعها كى تعود إلى البيت، فى أسرع وقت.

كانت واثقة أن شوكت سيقدر ضعفها.

لن يقول "أسديت لى نصيحة فشلت فى تطبيقها".

أرادت له النسيان، وتركت ذكرياتها المُرَّة تتحكم فيها.

"الأمر مختلف، تشانج ابنى".

والحقيقة أنها لم ترد النسيان، غذت حزنها من عام إلى عام، حتـــى صـــار جزءًا منها، وعكسته حياتها.

احتفظ بعادة السفر سنويًا إلى الصين، مهما كانت العوائق والمشاغل وبُعـــد البلد الذى تعمل فيه.

كانت تستسلم هناك للحزن، تجلس بجوار مقبرة تشانج، وتتحدث إلى روحه.

لم يعاتبها شوكت خوفًا من أن تَرحل يومًا بلا عودة.

(٥)

توقفت السيارة الأجرة عند ١٦٠٠ شارع بنسلفانيا، الوقت ظهرًا، والبيت الأبيض بدا كما تظهر الصورة، محيرًا، رائعًا ومدان.

مر نوري أمام بوابته الرئيسية، أحس بجدرانه البيضاء تتوسل إليه أن لا ينضم للمتظاهرين في الجهة المقابلة، أن ينسى مهمته في أمريكا، ينقي قلبه، ويتفهم وجهة نظر العاملين داخله، فهم أذكياء، أقوياء، ولم يصلوا إلى أماكنهم بسهولة. كيف؟ وعلى أي أساس شكك المتظاهرون أمامه في نزاهتهم وطيبتهم وقدرتهم على الحكم.

كيف يصدق جيرالدين حين تدعي أن ضياع ابنه بسببهم، بالتأكيد هناك حرية، لتقل رأيها بصراحة، ولكن لماذا تعفي الابن من المسئولية؟ أليس بالغًا، يأخذ قراراته بنفسه، وذهب إلى العراق بإرادته، ألا يثبت ذهابه؟ إن الإمبراطورية على حق في محاربة قوى الشر.

بحث نوري في المكان جيدًا، لا أثر لجيرالدين. استمع لزنجية نارية الشعر، وهي تنشد أغنية حزينة، تتنبأ بكارثة إن لم يستيقظ العالم، وهتافات مشرد لوح بلافتة تندد بالإبادة الجماعية، لموظفي البيت الأبيض الذين خرجوا يقضون وقت فراغهم في حديقة لافييت، كان يهتف باستماتة استمدها من أرواح ضحايا المجازر والإبادات الجماعية، التي سكنته وحولته مع متسكع إلى مدافع عن قضيتهم. غير بعيد وقف رجل بجوار مجسم من الكرتون للرئيس بوش، أخذ يدعو الزوار لالتقاط الصور مع الرئيس الكرتوني مقابل دولارات قليلة.

أين جيرالدين؟ قالت مذيعة السى إن إن، إنها مقيمة منذ أسابيع فى خيمتهـــا، ولن تبرح المكان حتى تحصل على رد من الرئيس.

ولكنه وجد خيمة أخرى وامرأة أخرى.

اقتربت المرأة منه محملة باللافتات، وحاولت إقناعـــه أن بـــوش وشـــارون مجرما حرب.

سألها، فأجابت "لا أذكرها، كثيرون يأتون للتظاهر هنا من أجل أبنائهم الذين سلكوا طرقًا خطرة، كى تحتفظ الإمبراطورية بالقوة والهيمنة، ضحايا صغار ودماء بريئة تسيل كى تبقى أخبار الإمبراطورية على صفحات الجرائد حول العالم، وفوق الألسن بكل اللغات، كى تلعب دور الساحرة الطيبة والشريرة.

أنا هنا منذ سنوات بعيدة، أنصب الخيمة نفسها، وأبدل اللافتات كلما استجدت الجرائم، كانت مظاهراتى فى البداية بسبب ظلم شخصى، لم أعد أذكره، ذاب أمـــام القصص التى سمعتها من آخرين..، صارت قضيتى، التظاهر ضد الظلـــم... كـــل الظلم".

اقتربت منه الزنجية الحلوة "أنت صحفى، اكتب أنى أحلم بالغناء ليل نهـــار، أريد أن أكون مثل ويتنى هيوستن. أشارت إلى الفراغ.. أسكن وسط فقراء قريبًـــا من هنا، كثيرون من جيرانى يمرون أمام البيت الأبيض كل يوم، ويتملكهم اليـــأس من تغيير حياتهم. تعرف أهمية حلمى بالنسبة لى ولهم؟ أنا الآن زنجيـــة مغمـــورة أدعو العالم كى يستيقظ، فماذا حدث؟ ولكن لو غنت ويتنى هيوستن، سينقض مـــن نومه مذعورًا".

لم يسألها عن جيرالدين، كانت فى دنيا أخرى، مندمجة فى أغنيتهـــا، وحلـــم الشهرة يخترق صوتها فيجعله أنقى وأقوى. كانت مصرة أن لا يطـــوى موهبتهـــا النسيان.

ولكنها قطعت الأغنية، التفتت إليه "نعم رأيتها، كانت هنا منذ يومين، ابنها لم يخطئ، كدت ألتحق بالجيش مثله؛ فهو طريق أمثالي للحصور على مستقبل، تراجعت حين رأيتهم يموتون فى العراق".

قبل أن يمضى ويفكر فى خطوته القادمة.

التقط نورى صورة مع بوش الكرتونى، ظهرت الزنجية فى الخلفية، وهى تردد المقطع الأخير من أغنيتها، وكان الأكثر ألمًا.

(٦)

ظل يوسف مقيمًا مع جدته، كان متعلقًا بها، تعلقه بمخلوقة خرافيـــة، تفهـــم صعوبة معاركه اليومية مع البشر، فتنوب عنه فيها، وتتفاوض بدلاً منه مع رمـــوز العالم المعقدة..

قرر شوكت أن يتحمل مسئوليته بجدية، لم يتوار من المشكلة كعادته، وكثف زياراته له.

حاول فك شفرة الحركات والأصوات التي يصدرها دون إنذار؛ فهـــم أكثـــر عن مرض التوحد وصاحبه إلى جلسات التخاطب والتدريب والتعليم.

وكلما ازداد فهمًا، تضخم شعوره بالذنب تجاه وداد. لقـــد ظلمهـــا؛ فطبيعـــة المرض فسرت تصرفات يوسف السابقة وعدم تجاوبه معه. وقد كان يبـــرره فـــى السابق بكراهية مستفحلة، غرزتها داخله بالدموع والشكوى والافتراءات.

ولأنها رحلت بلا عودة، اعتذر له بدلاً منها وتفانى فى العناية بـــه. كانـــت هونج على وشك القيام برحلتها إلى الصين، وهذا لم يمنعها مـــن اســـتقطاع وقـــت لمساندة شوكت. حضرت معه بعض جلسات التخاطب، واشترت ليوسف حكايـــات مصورة أوصى بها المتخصصون لتعليمه العادات والطقـــوس. أذهلهـــا ببراعتـــه وملامحه المنمنمة، وشعرت بالأسى لمصيره الصعب، ولم يواسيها كونه لن يـــراه صعبًا.

لم تخبر شوكت بهواجسها، بل ساعدته على رسم معالم طريق لتأهيل يوسف للحياة، وشجعته كى يسير فيه بمثابرة وصبر.

وقد فعل، ولكنه أدرك مع الوقت مأزقه؛ فهو يعلمه القشور، أمـــا المـــشاعر التى خلف الأفعال، فلم يلتقط منها يوسف شيئًا.

والمسألة ليست أنه دون مشاعر، ولكن مـشاعره مختلفـة؛ فهـي عفويـة، غامضة قوية، تضحكه وتبكيه لأسباب غير واضحة.

كان شوكت يعتذر له من آنٍ لآخر، وهو يترجم له تعبيرات الوجوه، والتتابع المنطقي للأفعال، ويبرر له الأكاذيب، ويدربه على المراوغة. فلغة البشر صـعبة، هو نفسه لم يفهمها.

كان التقدم بطيئًا جدًا، ولكن شوكت بدأ يعجبه أسـلوب حيـاة ابنـه خلـسة ويلتمس له الأعذار.

بدا له يوسف، بعينيه الواسعتين وتعبيراته المبهمة وسنوات عمـره الـستة، كفيلسوف صغير، أدرك منذ الوهلة الأولى أنه لا فائدة من أي تفاهم مع البشر، وأن كل تفاهم يعقبه خصام وقطيعة ومشاحنات وحروب.

كان يعرف أن لابنه وسائله الخاصة في متابعة الأحداث، وأن نبأ وفـاة وداد وصل إليه؛ فقد وجده ذات يوم يرفرف ذراعيـه أمـام دولاب ملابـسها المفتـوح ويبتسم.

لم يتدخل شوكت، جذب الجدة بعيدًا بعيدًا، واثقًا أن يوسف يتذكر أمه في هذه اللحظات الخاصة، ويواسي نفسه بطريقته.

(٧)

صعد شوكت سلم العمارة، انتابته أفكار غامضة، وهو يمر أمام الشقة المفروشة، توقف واسترق السمع، لا شيء هناك.

انفتح الباب فجأة، وجد نفسه فى مواجهة صادق الساكن الجديد. حياه صادق فى بساطة وشكره على تخفيض الإيجار. هز شوكت رأسه ولم يرد.

لم يكن يعلم أن أغلب سكان العمارة يتوجسون من صادق مثله، وخاصة تريز أرملة الدور الثالث، رغم أنه كان يثير شفقتها فى السابق بعينيه الجاحظتين، ووجهه الشاحب ونحوله ولهجته البدوية، وهيئته التى تشبه تلاميذ ثانوى.

اجتمعوا فى شقتها فى تلك اللحظة، وفوضوا لجرجس أمر مفاتحة شوكت صاحب العمارة بمخاوفهم، كى يتولى إخراجه من الشقة المفروشة.

"لا تقل مسيحيين، بل مصريين خائفين من التطرف والإرهاب".

التغيرات التى طرأت على صادق بعد انفجارى الأزهر وعبد المنعم رياض سبب هواجسهم.

اللحية المشعثة التى نبتت فى وقت قياسى، الجلباب القصير، زائرو الليل الذين يهتفون معه.

"إسلامية... إسلامية..."

توقف جرجس اليوم حين التقى بشوكت، بدا أكثر طولاً وامتلاء، ورغبة فى استخدام صوته الجهورى، وإصرارًا على إخراج صادق من الشقة المفروشة.

ولكن بدلاً من مفاتحته، تمتم وابتسم ابتسامته المعهودة، ورد شوكت بالطريقة المعهودة، ومضى كل منهما في طريقه.

أحس شوكت أن شيئًا تغير في جيرانه: خجل ورغبة في أن لا تلتقي النظرات، وهمهمة غامضة من خلف الأبواب... ماذا يحدث؟

بنى أبوه تاجر خان الخليلي العمارة في الستينيات، اختار لها أفضل مكان في القبة. الشارع الذي مر فيه الملك قبل الثورة، وسكنه كبار المسئولين بعدها.

كان معظم السكان من الأقباط، وشرطه الوحيد لتوقيع عقد الإيجار هو الشهادة الجامعية.

أراد شوكت أن يستوقف جاره ويهزه... ما هذا السلام الفاتر؟

ولكنه تراجع خلف مشاكله الشخصية، وشخصياته الكاريكاتورية التي يقتبسها من المجلات القديمة، ولكنه يؤكد لكل من يواجهه بذلك:

"أقدمها برؤية مختلفة، بدلاً من رقدتها في المكتبات وأرشيفات الصحف".

كان يفكر في هونج في ذاك اليوم. أوصلها إلى المطار مبكرًا، ومنذ أن اختفت عن عينيه تملكه الخوف، كان لا يستطيع أن يتخيل حياته دونها.

التقى بجرجس مرات بعد ذلك خلال الأسبوع. كلما أرادا الكلام والمصارحة آثرا السكوت.

****

استيقظ أغلب سكان العمارة ذات ليلة، على صوت قهقهة اكتشفوا خلال لحظات أنها حقيقية وليست بداية كابوس جماعي.

تلصصوا من النوافذ على مصدرها. رأوا صادقًا يضحك والضباط يدفعونه إلى عربة الشرطة.

"أنا أتدرب على دور إرهابي ولست إرهابيًا"

عرفوا بعد أسبوع من صديق له، التقوا به أمام الشقة المفروشة، أن صادقًا طالب فنون مسرحية، وهتافات الليل بروفة، والمنشورات التي لوح بها الضابط وهو يدفعه إلى عربة الشرطة نص مسرحي.

كانت صدمة للجميع، وخاصة شوكت.

شغله صادق أكثر من الآخرين. لم تخيفه اللحية ولا الجلباب القصير، ولا هتافات منتصف الليل. أخافته نظراته المستهينة بالحياة وأتاه شعور أثناء توقيع عقد تأجير الشقة له أنه يتصرف كضيف على العالم.... كعابر سبيل على وشك الرحيل.

ندم فور التوقيع وتمنى استعادة الشقة ولو بالشرطة.

ولكن من الذى أبلغ عنه؟ ولماذا؟.

شعر بهول ما حدث لصادق داخل أحد مقاهي الأزهر التي يرتادها، حين جلس رجل ملتح يقرأ القرآن في المقعد المجاور.

اختلس شوكت النظر إليه "هل ما يفعله لله، أم تدريب على دور في مسرحية، أم استعداد لخوض الانتخابات القريبة مع من يرفعون شعار "الإسلام هو الحل"؟!

ختم الرجل قراءته بالدعاء، مسح وجهه، والتفت إلى شوكت بعينين مستديرتين وأنف ملتوٍ مثل سؤال وابتسامة لم يعرف إن كانت تعبيرًا عن سماحة القرآن، أم استمرارًا للمراوغة: "هل أنا ممثل أتحداك أن تعرف".

* * *

عاد صادق بعد أيام من الحبس. تسابقوا في مواساته كأنهم جميعًا متواطئون فيما حدث.

جاره عضو حركة كفاية أول من زاره مع أحد ناشطي حقوق الإنسان.

"هيا أره الكدمات".

شعر صادق أنه أمام مخبول. الكدمات القاتلة ليست في جسده، بل في أفكاره.

سأله ناشط حقوق الإنسان عن موعد عرض المسرحية. غرق صادق في صمت كأنما يتدرب على دور جثة. وبعد انصرافهما، اتخذ قرار عدم تمثيل النص المكتوب.

كان التمثيل حلمه، ولكنه سيكون حلمًا مبتورًا إذا مثَّل نص المسرحية كما هو، وبعد كل ما حدث، لابد من إجراء تعديلات كثيرة.

هناك فرق بين الواقع المتخيل والمعيش.

أمسك نص المسرحية، أراد أن يفك الحصار عن الشخصيات والأحداث، لتكون أكثر صدقًا وألمًا وحزنًا. لم يتمكن من إضافة شيء. كان خوفه يبتر الجمل والكلمات والحروف قبل أن يكتبها، وفى النهاية وجد نفسه عائدًا إلى نقطة الصفر، أمام نص يكتم الحقيقة.

الفصـــل الثالث

(١)

أرسل نورى إلى هونج العديد من الرسائل الإلكترونية القصيرة. كتب إليهـا من واشنطن.

"مازلت أبحث"

وبعد شهر ونصف بعث يقول:

"انضممت إلى مظاهرة اليوم فى تكساس ضد الحرب على العراق، توقعـت أن أجد جيرالدين بين المتظاهرين ولم أجدها، ولكنى شعرت بعينيها تتابعنى"

لم تمر عدة أيام حتى أرسل إليها مرة أخرى.

"وجهتى القادمة هى نيو أوليانز"

لم تمر ساعات على وصوله إلى نيو أوليانز حتى استوقفته زنجية عجوز فى شارع ليزارد. نادته باسمه، ضمته إلى صدرها، وأخبرته أنه شاخ.

لم يتعرف عليها فى البداية؛ فهو لم يمكث مع جيرالدين سوى عامين فى نيو أورليانز، كانت زوجته تأخذه خلالهما إلى مغامرات أسمتها "نضال من أجل الهنود" وبعد ذلك اتضحت كشبح قادم من أعماق الذاكرة، وتذكر زوجته تتكلم عنها بجارتنا هيلدا.

لم يستطع أن يجزم أن هيلدا التى ظهرت فى ذكرياته هى نفسها المرأة التى قابلته فى شارع ليزار، ودعته إلى تناول القهوة فى بيتها.

فهيلدا الأولى أكثر رشاقة وقوة وتفاؤلاً وصوتها عاصف، أما هيلدا الأخيرة فعجوز بدينة. مازال صوتها مثل رنين جرس، ولكن علاه الصدأ.

قبل الدعوة فهناك أسئلة كثيرة دارت في رأسه دون إجابة، هل مازالت على صلة بزوجته السابقة؟... هل تعرف ابنه؟ أخبرته وهو يحتسي القهوة أن جيرالدين مازالت تسكن في البيت المجاور... ولكنها اختفت منذ شهور.

ربتت عليه بيديها المعروقتين وهي تحكي له كيف هجرت البيت منذ توقف رسائل ابنها رمزي إليها من العراق.

هربت قبل أن تأتيها الأخبار الأسوأ "ليته يعود من أجلها ومن أجل ابنتي"

تنهدت "كانا حبيبين؟ توقفت رسائله إليها أيضًا".

شعر بوخز في روحه كلما تكلمت عن رمزي. كانت تتوقف كثيرًا أثناء الحكي، كأنما في ذاكرتها فجوات تحاول عبورها، أو حقائق وهواجس تفاجأ بها ولا تود الإفصاح عنها.

والنتيجة لقد أخبرته بالقليل جدًا عن ابنه، فلم يعرف أي حياة عاشها، ما الذي أحبه وكرهه؟ ماذا عني له اختفاء الأب؟

وكأنما قرأت ما دار في ذهنه، أعطته اسم المطعم الذي تعمل فيه ابنتها.

"ستنتهي نوبتها التاسعة".

جاهدت كي لا تبدو كلماتها مواسية.

تركها واتخذ طريقة إلى المطعم، ولكنه كلما فكر في هيلدا شعر بوطأة الزمن عليه. هل صدئ مثلها؟

خطرت له، حبيبة، بدا له تعلقه بفتاة تصغره بستة وثلاثين عامًا بلا وعود أو رسائل أو اعتراف صريح بالحب، محاولة شجاعة وجريئة للوقوف في وجه الزمن؛ فهل ما شعر به تجاهنا مقاومة أم حبًا؟

أنقذه الوصول إلى المطعم من الاسترسال في الأفكار.

تعرف على جيسيكا بنفسه ومنذ الوهلة الأولى.

كانت بلون العنبر، لها عينان ساحرتان وابتسامة مشرقة.

انتظر حتى أنهت ورديتها، ثم تقدم منها وعرفها بنفسه.

لم تندهش؛ فغرائب الواقع تحاصرها. وافقت على الجلوس معه، والكلام عن رمزى، فقط لأنها فرصة كى تتكلم عن الرجل الذى تحب، ولتهرب من هواجسها اليائسة، لم تهتم بأنها تجلس إلى الرجل الذى وصفه رمزى بالوهم.

بادرته قائلة "لم يكن يريد السكن في مقطورة وإنجاب أطفال فقراء والتنقل بين وظائف مثل العمل في المطاعم وتسقيف المنازل وقيادة الشاحنات".

"كان الجيش بالنسبة إليه طوق نجاة، لن يصير جنديًا إلى الأبد، عامان فقط، بعدها يمكنه الالتحاق بالشرطة أو ربما الجامعة".

أشعلت جيسيكا سيجارة، ونظرت في عينى نورى مباشرة.

"مر عامان، ولم يترك الجيش".

كان الموضوع أعمق مما تصورت، فبداخله رفض لواقعه، ورغبة فى الهروب من الجيتو العرقى الذى وجد فيه نفسه؛ فهو ابن هندية حمراء أمريكية

وغجرى قادم من مصر، والجيش فرصته الوحيدة كى يثبت أنه أمريكى، وأمريكى فقط.

ارتعشت أصابع جيسيكا، وأطفأت السيجارة وهى تفكر "ليته لم يحصل على الدعوة، ولم يشاهد العرض الخاص لفيلم بيرل هاربور فوق حاملة الطائرات. الأفلام المبهرة نقطة ضعفه، تتسلط عليه وتتمكن منه".

استرسلت تقول: "أخبرنى كيف تحركت حاملة الطائرات بالضيوف من ميناء سان ديو إلى بيرل هاربور؟، لإضفاء مزيد من المصداقية والواقعية، ثم بدأ العرض وتوالت المشاهد التى هزته.. الحب والحرب، ميناء بيرل هاربور يدمر فوق الشاشة، آلاف القتلى يتناثرون، شعر بالغضب، يجب ألا يتكرر هذا"

تذكرت كيف صار رمزى كثير التوهان منذ ذلك الحين. أدمن مشاهدة الكارتون كأنه بذلك يقاوم ما شاهده فى بيرل هاربور، ولكن مقاومته انهارت حين توجه فى أحد الأيام لمشاهدة فيلم الأطفال "الريشات الأربعة"، وفوجئ قبل العرض بلقطات لقواعد عسكرية فى كابول وبونتى ناين بالمس وهاواى وأريزونا. ساعتها حسم أمره.. الجيش ولا شيء آخر.

كان حتى تلك اللحظة شخصًا مشوشًا، مليئًا بالتناقضات. بداخله البراءة والقسوة، تبهره اللقطات الحربية الرهيبة، وأيضًا أفلام الأطفال التى ينتصر فيها الخير والطيبة على مراوغات الأشرار، يحب جيسيكا، ولكنه لا يريد الارتباط بزنجية تحمل تاريخ أجدادها الطويل الملىء بالصراعات والألم، وأن يعانى نسله من مزيد من الجيتوهات العرقية.

واتاه الإلهام قبل نهاية فيلم الريشات الأربعة، وما اعتبره تناقضًا فى شخصيته بدا أنه انسجام متناه؛ فمن أجل تحقيق عالم البراءة الذى يحلم به لابد من القتال، والقتال بضراوة.

أخبرها أن التحاقه بالجيش محاولة صادقة منه لإنقاذ نفسه، ولكنها فهمت... كان يريد النضال، ولكن دون خسائر. لم يرد الانضمام للطــرف الأضــعف أو أن يضيع عمره في صراع من أجل الهوية كأمه الهندية وأمها الزنجية.

يريد أن يكون مواطنًا أمريكيًا، أن ينسى التاريخ وينتمي بكل كيانه للحاضر؛ فهو يفضل التمتع بحياته في الظل، على أن يفقدها من أجل قــضية خاســرة فــي نظره، حتى لو صار بطلاً وشهيدًا وأسطورة.

كان الالتحاق بالجيش يعنى له الحياة والمستقبل. وحين علــم بذهابــه إلــى العراق لم يهتز، سوف تحميه التكنولوجيا الأمريكية، يحارب بريموت كنترول بعيدًا عن أرض المعركة.

سيمثل دور شبح يحصد الأرواح ولا يخسر روحه. وبعدها يحــصل علــى المستقبل الذى تمناه فى أمريكا.

لن يلتقى بالضحايا، أو يرى الفزع والصرخات والدموع والفقد.

كانت رسائله الأولى إليها من العراق، تحكى عن نزهة.

بعد ذلك تحولت اللغة تدريجيًا داخل الخطابات إلى رهبة وكابوس.

أخبرها أنه هرب من جيتو عرقى إلى جيتو من الكراهية. إن مــشاكله مــع نفسه تفاقمت بدلاً من أن تحل؛ فتمرده على ظروفه، وحقيقة أنه ولد فوق جزيــرة الصخرة أثناء واحد من نضالات الهنود، كان يشعره بالعزلة، ولكن ذهابه للعــراق ضاعف من أزمته، وأظهر له أن الوحش الذى أراد مصادقته والانتماء إليه يريــد أن يأكله.

طلب منها أن تسامحه.

(٢)

لم يتطرق حديث جيسكا إلى أب كان رمزى يفتقده أو يتمناه أو يكرهه.

شعر نورى بالأسى، ولكنه من جعله وهمًا.. فـــى حياتـــه ابنـــه.. أليـــست جير الدين.؟!

استعاد فى طريقه إلى الفندق مشاهد من زيجتهما القصيرة.

تذكر لحظات ابنه الأولى فى الدنيا، ولد فوق جزيرة الصخرة فور احـــتلال هنود مناضلين لها. لم يمنعها الحمل من الانضمام إليهم وتبعها.

كانا أشبه بمغامرين يروضان القدر. ساهما فى تحويل الجزيرة التى تتوسط خليج سان فرنسيسكو من سجن فيدرالى مهجور وصخرة كئيبة وموحشة إلى بيـــت ضم هنودًا حمرًا ينتمون إلى خمسين قبيلة.

منذ اللحظة الأولى لوصولهما، ردت إليهم قوى خارقة سحر الحب.

كانا يقضيان الوقت داخل كوخهم المصنوع من الحشائش، يتـــأملان عظمـــة الكون ووحدته.

تضاءلت الخلافات التى كانت مشتعلة بينهما وواتاهما شعور أنهما خرجا من هامش العالم، وأن الكلمات التى يتبادلانهـــا والإيمـــاءات والابتـــسامات والأفكـــار والأحلام والخيالات ستتحول إلى سطور بارزة فى كتب التاريخ.

حاولا التصرف بتلقائية، ولكن فكرة أنهما يتحركان أمام كاميرا المـــؤرخين، جعلتهم يتبادلان الحب كما قرآ عنه لا كما شعرا به، تركا الجزيرة حـــين أصـــيب رمزى بحمى لم تخفف منها الوصفات الهندية.

أصر نورى: "لا بد من طبيب".

أكدت جير الدين: "سنعود".

ولكنهما لم يعودا؛ ففى اليوم التالى، احتلت القوات الفيدرالية جزيرة الصخرة وانتهى الحلم.

أصيبت جيرالدين بالكآبة، وحمّلت زوجها مسئولية ضياع قضية عمرها.

كانت مجروحة، وتبخرت لديها كل رغبة فى الحب، ووجهت طاقتها للمقاومة وكتابة المقالات فى مجلة "لارازا" الهندية.

كانت تلومه، وأخبرته ذات يوم أن عليه الرحيل، وأنها تزوجت النضال من أجل الهنود.

وبالفعل شغلت بتلوث نهر كويا هوجا وغرق محمية سينيكا الهندية، أكثر من انشغالها بزواجهما.

ارتبط نورى بها فى تلك الأثناء، ليس بسبب الحب، ولكن لدهشته من وجود امرأة أكثر جنونًا منه لم تنس أبدًا تجربتها فوق جزيرة الصخرة واعتبرتها تجربة ناقصة.

كانت تريد فرصة أخرى لتثبت إخلاصها وإيمانها بقضية الهنود وفلسفتهم وطقوسهم.

وعندما احتل ستون من هنود كاليفورنيا أرضًا بالقرب من نهر بيت، كان ذلك نجدة لها واختبارًا جديدًا لقدراتها وفرصة لتعوض ما فاتها من النضال.

انضم نورى إليها ليس إيمانًا بقضيتها، وإنما كان خوفًا من أن تنفجر هذه القضية فى وجهها ووجه ابنه.

كان أقل تفاؤلاً هذه المرة، لم يواته شعور أنه يصنع التاريخ، كأنه تيقن من زيفه. عارضته جيرالدين فربما لن يلتقط التاريخ صوتهم، ولكن قضيتهم حقيقية ولن تموت، ودعته إلى الاستمتاع كغجرى بالسماء والنجوم وكوخهم المتنقل الذى صنعوه من جذوع الأشجار وأوراقها وتحديهم للحكومة أن تثبت ملكيتها للأرض.

ولكنها اكتشفت سريعًا سذاجتها، وتبينت أنها تتفاوض مع حكومة بلا قلـــب. لم تبعث إليهم رسلاً وحلولاً سلمية أو وثائق، بل رجال بوليس يـــشهرون الأســـلحة والجنازير والعصى، وتحيط بهم الكلاب المدربة.

تحولت جنتهم الصغيرة إلى جحيم، عجائز يضربون حتى يفقدون الـــوعى، نساء وأطفال مذعورون، فتية يقاومون فى إصرار، دماء تسيل فى كل مكان.

دفعوا نورى داخل إحدى سيارات الشرطة، وزوجته وابنـــه الرضـــيع فـــى أخرى، بتهمة قطع الأشجار، وتهم أخرى لم يعد يذكرها.

شعر في تلك اللحظة أن عليه الرحيل من حياتها إلى الأبد.

(٣)

عادت جيسيكا إلى منزلها مجهدة وحزينة؛ فحديثها عن رمزى مع أبيه لمدة ساعتين، ضاعف من جراحها.

أخرجت رسائله إليها، تذكاراته، هداياه الصغيرة، واستعادت فى ذاكرتها تفاصيل حصوله على الدعوة التى قلبت حياته.

.

كان ينهى نوبته فى المطعم الذى يعملان به.

ناداه زبون دخل لتوه، أعطاه الدعوة قبل أن يتعارفا ودون مقدمات، كأنه يتخلص من عبء ثقيل وصراع داخلى.

طلب الرجل القهوة ودعاه للجلوس، انضمت إليهما بعد ذلك. كان مصورًا صحفيًا شهيرًا

"أنتما لا تعرفان قوة الصورة، الصورة الجيدة توازى عشر قنابل".

قلب كتالوج لصوره، أشار إلى واحدة "التقطتها فى جرينادا عام ١٩٨٣"

العناية الإلهية أهدتها إليه. كان وقتها يقضى إجازته بين غابات الجزيرة الكاريبية الساحرة وسفوح جبالها البركانية.

وبينما هو غارق فى الجمال، حدث انقلاب يسارى، محاولة من حالمين للتخلص من الظلم والفقر.

نفذه الثوار بدقة وبراءة، اعتمادًا على ما يحدث فى الحكايات الخيالية؛ فالنصر للخير فى النهاية. كادوا أن ينجحوا لولا أمريكا وبراعتها فى تأليف الحكايات المعاصرة؛ فسرعان ما نشرت جنودها فى أنحاء الجزيرة، وتحول الثوار خلال خمسة أيام إلى أشباح ليست موجودة، لا تفزع ولا تضر. انتهت الحكاية إلى

أنهم ليسوا أخيار، وأن التدخل حدث فى الوقت المناسب لوقف تيار الشر المتفجـر فى الجنة الصغيرة.

تمكن من الاختباء والتقاط الصور داخل الغابات، وهناك أشار إلى صـورة "وجدته يحكي كل شيء دون كلمة".

فاجأتهما الصورة، كانت لجثة رجل أسود يمسك سلاحه بيد، ويرفع بالأخرى علامة نصر لم يتحقق، حول رقبته أيقونة عائلية: طفلان فى حضن امرأة، وكأنهما حلمان تخشى ضياعهما.أشار إلى علامة النصر.

"تركوا جثته تتعفن مع أحلامه".

فى خلفية الجسد الميت غابات كثيفة وطبيعة خلاّبة.

كانت لقطة قاتلة تعكس الفقر، الجشع، التوحش، الألم والجمال.

قلب الرجل الكتالوج، أراهما جماجم أطفال فى أكثر من صورة التقطها فـى السلفادور.

توالت الصور، استمر الرجل يسرد ظروف وصعوبات التقاطها.

تأثرًا بلقطاته، ولكن رمزى لم يلتمس له عذرًا لتفريطه فى الدعوة؛ فحضور عرض خاص لفيلم هاربور على متن حاملة طائرات أمريكية حلم لا يتكرر كثيـرًا أرجع تصرفاته لغرابة الفنانين، شطحاتهم، خيـالاتهم المجنونـة وأفعـالهم غيـر المبررة.

فالرسالة التى استقرت داخله كلما ازدادت صوره حياة وقسوة، ليست بشاعة انتهاكات الدولة العظمى، ولكن حقها فى أن تتنبأ بالمخاطر وأن تردهـا بـضربات قاسية. إما جلاد أو ضحية.

تأكد من هذا بعد مشاهدته العرض. لقد انتهى عصر البراءة.

(٤)

الربيع بالنسبة إلى هونج أن تعود إلى البيت الذى تربت فيه، بالقرب من بحيرة "تايهو".

تدخل من بوابته إلى الماضى؛ حيث توجد حديقة كبيرة مليئة بالزهور، الكهوف، الشلالات الصناعية، وتتوسطها مقبرة تشانج.

كان منزلاً للعائلة، استخلصته لنفسها من الورثة الذين تجاوزوا الثلاثين فردًا.

الشباب رأوا فيه الماضى الذى يجب التخلص منه، ليغزوا المستقبل بذهن خالٍ وقلب مفتوح. والعجائز هجروه سعداء؛ لأن أشباح الأسلاف تتجول فى أروقته وتؤرق لياليهم، ووجود مقبرة فى الحديقة يذكرهم بالموت.

استأجرت هونج بستانيًا عجوزًا، علَّمته الحياة أن الجوع أكثر رعبًا من الأشباح.

كان أحد المانجونج، جاء مهاجرًا من قرية صينية نائية، قاصدًا شنغهاى، بحثًا عن عمل وحياة.

لم يوظفه أحد لكبر سنِّه، وجدته يكاد يلفظ أنفاسه من البرد والفقر والجوع أمام إحدى علب شنغهاى الليلية. دون أن يلحظه أثرياء الصين الجدد الذين كانوا يدخلون الملهى، ويتبادلون كؤوس الكونياك الفرنسى، أفزعته أضواء شنغهاى وقسوتها، وكى لا يصاب بالجنون، اعتبر تجربته هناك بعد أن حملته هونج إلى بيتها، هلاوس أصابته أثناء الجوع.

انهمك فى عمله الجديد، يعتنى بالبيت والحديقة طوال العام، وينتظر بصبر وصول سيدته فى الربيع.

وأخيرًا يراها، فيتفانى فى خدمتها امتنانًا.

كانت هونج فى الأيام الأولى لوصولها، تتجول فى حدائق ووكسى المتعانقة مع الجبال، تحضر مهرجان "ميهوا" للزهور فى جبال شيشان، تستلقى داخل مركب له خمس سوار، يشق بحيرة "تايهو"، وتقضى عصر كل يـــوم فـــى جزيـــرة رأس السلحفاة، قبل أن تخلد للحزن أمام مقبرة ابنها... وتفكر فى الله.

(٥)

عرفت الله فى طفولتها من امرأة عجوز، ماتت قبل أن تكمل هونج عامها التاسع.

كانوا يقولون عنها فى البيت المزدحم إنها إحدى الجدات، ولكن فى زمن سقطت فيه التقاليد، ولم تعد عبادة الأسلاف ولا تبجيل الصغير للكبير واجبة، لم يجهد أحد نفسه كى يعرف جذورها بطريقة مفصلة.

لم يكن يتسلل إلى غرفتها سوى هونج. تخيلتها العجوز فى البداية ملكًا بعثه الله، كى يسامرها ويؤنس وحدتها قبل أن تموت.

كانت تحدق فى النافذة ناحية البحيرة، وتحكى حكايات تذيلها بمتى يبعث الله ملك الموت. كلمتها عن جذورها بالتفصيل؛ فهى من سلالة التايبينج الذين عبدوا الله وقاموا بثورة كبيرة فى الصين.

حكت عن عدالة أسلافها، والطبلتين اللتين نصباهما فى كل ساحة كى يقرعها كل مظلوم.

التصقت هونج بالعجوز إلى الحد الذى أقلق أبوها. كان خائفًا عليها من حكاياتها التى تطلق الأحلام، ونهاها عن الجلوس معها؛ فهى شيطانة وساحرة. أوقعت جده الأكبر فى الحب رغم قبحها. أكد لهونج أنها لم تبق فى المنزل بقوة التقاليد، التى تمنعهم من إلقاء عجوز على قارعة الطريق، ولكن بقوة السحر.

لقد أطلقت أحلام كل من سمع حكاياتها، وتحولت الأحلام إلى أفعال ورغبة فى تغيير العالم.

روى لها قصة الخال الذى كتب مسرحية، وراح يمثلها مع مجموعة من الصعاليك فى أزقة الصين وقراها النائية. لقد استدان وشنق نفسه على باب دائنه. وهناك قصة أخرى لأحد أبناء عمومته، لقد صار مقربًا من ماوتسى، وأبدى رأيه

بصراحة مصدقًا المقولة التى أطلقها الزعيم الشعبى "دع ألف زهرة تتفتح" ففقد حياته.

كان أبوها يرى فى الثورة وحتى الرغبة فيها مغامرة، لن تؤدى إلى شىء سوى الموت واليأس والمزيد من الكوارث.

توقع المزيد من الكوارث بعد انفراط عقد العائلة، كل فى طريق حلمه، بسبب حكايات العجوز.

حاول بكل الطرق إبعاد ابنته الوحيدة عنها. كان يعدها لتكون طبيبة، وبدأ بالفعل تلقينها وصفات طبية، توارثها أجداده كسرٍ عائلى.

كلمها عن جد شارك فى وضع كتاب طبى بأمر الإمبراطور، وآخر ابتكر وصفات طبية وثالث شخّص نوعًا غريبًا من الحمى، ولكن حكاياته لم تحرك خيالها. جعلها خوف أبيها تفتش عن رغباتها الحقيقية وتسعى خلفها، فتشكل حلمها بعيدًا عن حلمه.

لم تقض حياتها وفق خطة رسمها الأسلاف، أو تتقيد بالخوف والتوجس من كل جديد.

داعبت أحلام تشانج وهو فى الأقمطة "لا تبق مكانك".

غرست داخله الحلم بالتحليق، منتهى القسوة، من استطاع ذلك؟

(٦)

رفعت هونج رأسها إلى السماء. كانت لا تزال بجوار مقبرة تشانج.

أحست أن الله معها.

لم تتوقع أن يقتحمها زوجها السابق فى هذه اللحظات الخاصة، ولكنها وجدته أمامها.

بدا مختلفاً عن المرات السابقة. ذكرتها ابتسامته بلقائهما الأول فى أحد محلات الزهور ببكين، تكلم وقتها فلم تفهم، كتب "الحروف الصينية مثل الزهور تعكس الأفكار، وتنقل رسائل بين ذوى اللهجات المختلفة" رسم غزالتين ففهمت أنه يقول "جميلة".

ورسم الشمس والقمر ففهمت أنه يقول "الضوء"

وقعت فى أسر الرجل الذى كتب لها بالصينية جميلة والضوء.

سحرتها رسائله المستوحاة من حوافر الطير، آثار الأقدام ورموز الطبيعة.

توقف عن الكتابة إليها بعد فترة من الزواج، فاستحال التفاهم. واكتشفت لهجته الصعبة.

كانت قادمة من بيت قريب من بحيرة تايهو، تتشابك فيه الحكايات والأساطير. وكان قادمًا من الشمال، ليعمل فى أحد مصانع بكين. لم يكن لديه الوقت كى يستمر فى رسم مشاعره لزوجته، ولا فائدة من الكلام معها بلهجته التى لا تفهمها.

تباعدا، ثم افترقا دون تزاور، ومع الوقت نسى كلاهما عنوان الآخر.

التقيا منذ خمسة عشر عامًا فى جنازة تشانج، مثل شبحين جلبتهما قوة خارقة فى مواجهة بعضهما.

بدا لها آنذاك مثل عصا مستقيمة بلا ملامح، قال كلمة مبهمة، نظرت إليه فقطب. إنه يحملها كل شيء كعادته.

انحنى فور الدفن على قبر تشانج، رسم سقفًا وتحته امرأة، إنه يكتب السلام. هل كان يعني الكلمة، أم يذكرهما ببيتها الذي كان؟!

ما الفائدة الآن. بموت تشانج افترقا إلى الأبد.

كان الثمن فادحًا والألم شديدًا.

لماذا جاء الآن؟

استقبلته في بساطة؛ فبعد أن نسقت آلاف الباقات كانت مستعدة للتسامح، عرفت أنه ما زال يعيش في أمريكا، وأنه الآن مساهم كبير في إحدى الشركات العابرة للقارات التي تجهز ملاعب الأطفال وألعابهم، وهو الآن يتفاوض مع رجال أعمال صينيين من أجل نقل هذه الصناعة إلى مراكز صينية.

تنهد "ربحت الكثير، ولكني لم أنس الخوف القديم من التشرد والجوع"،

لم يكن طوال رحلته يهدف إلى الربح، ولكنه كان يكافح من أجل البقاء. تقمص أمام الجميع دور رجل الأعمال العصامي، الذي علم نفسه، وجعل منها معجزة تناقلتها كتب الإدارة في العالم، واعتبرتها دليلاً على قدرة الإنسان اللامحدودة، وبقي داخله ظل العامل البسيط متيقظًا، مبتسمًا ومحذرًا: "لا تنس حقيقتك".

رأت لأول مرة شرخًا داخله وافتقادًا للوطن.

كان يتجول في بكين، شنغهاي، جوانجو، على ضفاف اليانجستي، في القرى الصينية، بين الجبال، محاولاً أن يستعيد الصين التي في خياله. فيجد الأرض والجبال، ولا يجد قوة الحياة (التشي)، ويتعمق إحساسه بالغربة.

تناولا الشاي، تحاورا بالرسم والكلمات والإشارات.

تركته وقتًا كافيًا أمام مقبرة تشانج، ودعته، وأغلقت في ذلك اليوم صفحة حزينة.

اتخذ شوكت طريقه إلى بيت عم شموئيل كبير أسطوات ورشته، الذى يسكن فى أطراف الحى نفسه. وهى المرة الثالثة التى يقصده فيها خلال أسبوع، مفتشاً فى ذكرياته.

لم يكن سهلاً على رجل بلا عمر، ولم تعد الأحداث المحيطـة تعلـق فـى ذاكرته أن يحكى، ولكن بعض المواقف النادرة كانت تخرج من التـواءات وثنايـا أعماقه، ليثرثر بها مع نفسه.

كان شوكت حتى وقت قريب لا يلتفت إلى ما يقـول، مكتفيًـا بـشخوصه الكاريكاتيرية السابحة فى فضاء رحب من الحكايات المعاصرة.

لم يكن الماضى يعنى له الكثير؛ فمـا الفائـدة؟ الحيـاة قـصيرة، مزحمـة بالتفاهات والكوارث، ويجب ألا نحشر فيها وقائع ولت.

ولكنه منذ أسابيع قليلة، شغل بفكرة تسلطت عليه، راحت وجاءت وحاصرت عقله. خطر له أن مرض ابنه النادر، هو خلاصة صراعات وأحداث عائلية قديمة، وتملكته رغبة شديدة، أن يستمع لشطحات العم شموئيل.

لم يكن فى نيته التوقف عند مقهى الإنترنت أو بعث رسالة إلكترونيـة إلـى هونج.

لكن المقهى اجتذبه، فسلم أنه لا يعرف إلا القليل عـن نفـسه، وأن أفكـاره الحقيقية عميقة وسرية.

لم تلفت صاحبة المقهى انتباهه، ولم يخطر بباله أن امرأة لها وجه فـأر مـذعور، تخفى بداخلها السحر والحدس الأنثوى والألم، وتحاك من حولها حكايات وأساطير.

كانت منكبة على أوراقها، تكتب قصتها بنفسها بعد أن تكاثرت الأقاويل من حولها. كانت صريحة وخيالية كما يلى:

"قضت طفولة منزوية، تتحرك مثل شبح بين ذويها وجيرانها، بعينها الضيقتين وجسدها النحيف وبشرتها القاتمة.

كانوا يتهامسون من حولها، لن تحصل على زوج، فلن يتحمل رجل كل هذا القبح. وحين حظيت بواحد، اعتبروا ذلك معجزة، وأشفقوا على الرجل. لم يكن زوجها يختلف فى تفكيره عن كثير من الرجال، فقد وجد القبح فضيلة، بعد حياة عريضة، مليئة بالنزوات والشكوك والإحباطات؛ فزوجة قبيحة فى بيته لن يثير شكوكه أو غيرته.

أعجبه صمتها الشديد، انحناءة جسدها وانكسارها.

لم تفتش فى مشاعرها وخيالاتها حيث ترقد حكايات مبهرة، متاهات ودروب مسحورة، واستخفاف بالعالم الذى وقف عند هيئتها، ولم يكتشف جنونها الخفى".

عند هذا المقطع تململ شوكت فى وقفته، واستدار، وفى نيته الخروج من مقهى الإنترنت، لم تلاحظه وواصلت الكتابة.

"كان القبح جواز مرورها خارج بيتها وداخل كل البيوت. مفتاح يفتح لها قلوب النسوة التعيسات وأسرار الزيجات التى تبدو متماسكة وقوية، بينما السوس ينخر فيها حتى الموت".

هناك امرأتان أو ثلاث أغلقن الباب فى وجهها، حين اكتشفن كنزها المخبوء، وخطورته على أزواجهن.

ورجال كشفت لهم عن حقيقتها، فتغير مفهومهم عن جمال المرأة؛ فلم يعودوا يحلمون بسمراوات أو شقراوات، تمنوا امرأة بلا ملامح مليئة بالسحر مثلها.

كاد رجلان أو ثلاثة طوال العشرين سنة الماضية، أن يدفعوها إلى التمردعلى زوجها الفظ، كثير النزوات، البخيل، وخاصة بعد أن ذاب حلم الأمومة، وتأكدت من عدم قدرتها على الإنجاب.

لولا أنها فتشت فى أعماق هؤلاء الرجال، فرأت ملاعين لا يختلفون فى جوهرهم، عن زوجها، لهم الكثير جدًا من الحقوق والقليل جدًا جدًا جدًا من الواجبات، يؤيدهم المجتمع والتاريخ ونساء مغلوبات مثلها"

هنا تذكر شوكت هونج، عاد إلى داخل المقهى، متجولاً بين أجهزة الكمبيوتر التى يجهل التعامل معها مقتربًا من الطاولة التى تكتب عليها، ولكنها كانت مستغرقة فى كتابة الجزء المهم والمؤلم من قصتها... "ورغم واقعها المحبط، وزواجها الجاف، المتهالك، لم تفقد إيمانها بالحب. تفكر فيه، تتبع أساطيره، تفتش عنه بين سطور الروايات الرومانسية.

ولهذا أدارت مقهى الإنترنت الذى افتتحته منذ سنتين لصالح المحبين من زبائنها، وأغلبهم مراهقون ومراهقات.

كانت تعينهم على كتابة رسائل حب ملتهبة، يتبادلونها عبر بريدهم الإلكترونى، على أمل أن تزهر الكلمات يومًا، وتخلق واقعًا جديدًا، أو عقدًا أكثر عدلاً بين الرجال والنساء."

اقترب شوكت أكثر، سقط ظله فوق أوراقها، ولكنها ظنته ظل فكرتها التالية، واستمرت فى الكتابة خائفة أن يفلت الإلهام منها "... كان مقهى الإنترنت محاولة منها لتجاوز أزمة تقاعد زوجها المبكر، والقصص المأساوية للخصخصة، التى انهالت عليها من كل مكان، أكثرها سوادًا قصة زوجها: فعقب خصخصة المصنع الذى يعمل به، فقد وظيفته، ومعها الرجولة، الكيان، الصوت الجهورى، الشراسة، الاستهانة بمن هو أدنى وأضعف.

لم يحتمل، وأصيب بشلل نصفى وخرس أبدى.

كان يدخل أحلامها كل ليلة، لاويًا فكيه، مصدرًا أصواتًا غير مفهومة، عيناه تظلمان كلما لمحها، كأنما اكتشف سرًا.

فقد أظهرت سحرها بلا رحمة، فى أيام مرضه الأول. حدثته بما لم يسمعه من قبل، كلمات كأنها دبابيس حريرية، مسَّت قلبه وآلمته. وجد نفسه يعشقها، يغار عليها، ويندم على عدم ملاحقتها بشكوكه سنوات زواجهما."

وضعت القلم بدت عائدة لتوها من عالم الأشباح، شاحبة. أنفاسها متلاحقة، قلبها ينبض بقوة، ابتسامة صغيرة تلون ملامحها. ارتبك شوكت، وقرر الخروج بلا رجعة، ولكنها استوقفته.

"أهلاً وسهلاً".

كانت تعرفه عن بعد وتعرف زوجته السابقة وداد، وأمها

لم يتعرف عليها شوكت، رغم ما حكته جدة ابنه عنها، حاذفة قدراتها ومواهبها، مبقية الانطباع الذى استقر فى ذهنها، والذى يؤكد أنها امرأة قليلة الحيلة والبخت.

ولكنها حكت أيضًا عن عشرات النساء المتناثرات حولها مثل بثور تعيسة، فلم يكن سهلاً عليه أن ينصت إلى ماتقول ويتذكره.

اقترب دون أن يتصور أنها خمنت، من خطواته، ارتباكه، التماعة عينيه، السر الذى ينكره أمام نفسه، فقررت القفز به خطوات نحو حبيبته.

بادرته وهو يعطيها بريد هونج الإلكترونى: "تحبها".

اشتعل وجهها بابتسامة حين أفصح عن جهله بالكمبيوتر "أعرف أنك تحبها"

توهجت عينيها اللوزيتين، وشرعت تصمم بريدًا إلكترونيًا خاصًا به" الحب بعد الخمسين شديد القسوة والعذوبة...... استسلم له"

ابتلع ملامحها نور قوى "لا تقل كما يقول الكبار العاقلون، الحب وهم وخديعة.... لا تقاوم الخيالات اللذيذة... لا تكن واقعيًا"، كان الضياء يبتلعها جزءًا جزءًا، ربتت على كفيه "دع الأمر لى".

الفصل الرابع

(١)

كان نورى يعلن فى كل مناسبة سعادته واعتزازه بجذوره الغجرية، ولكنه أخفى داخله سخرية ومرارة؛ فكم تمنى سرًا أن لا يكون غجريًا، ولد فوق كومة من الأساطير والموسيقى والفقر.

لولا المصادفة لأكمل حياته مثل الظل.

لا يدرى إن كان البيت الكبير الذى تركه طفلاً فكرة اخترعها أم واقعًا عاشه؛ فهناك العديد من الأكاذيب التى ملأ بها فجوات تاريخه، والتى تحولت مع الوقت إلى حقائق.

وأكثر أكاذيبه رقة وروعة وعذوبة ووحشية، هى كل ما يتعلق بلحنه الوحيد.

أما الحقيقة فقد استعادها فى بساطة، وهو يتجول بين الولايات الأمريكية بحثًا عن جيرالدين، مخترقًا سنوات التعتيم فى ذاكرته.

ليست المسألة أنه صار أجرأ وأكثر رغبة فى التطهر بعد تجاوزه السبعين. ولكن الأحداث والصراعات والأحلام تبدو بعيدة وتافهة فى هذا العمر.

تذكر طفولته بين الغجر، متنقلاً بين قرى صعيد مصر.

كانوا يتحايلون على القدر لمواصلة الحياة، بالرقص والغناء، ودق الوشم وإصلاح الأقفال والتنقيب عن الثعابين فى البيوت، أو العمل قرداتية، خفر، شحاذين.

فتنته موسيقاهم، عزف على الطبلة، الرق، الربابة، فى الموالد والمقاهى، وبين أزقة القرى وغيطانها.

رآه جاك الذى كرس حياته لدراسة الغجر، لأول مرة، وهو يسلى حشدًا من السميعة الفقراء من أجل قليل من الخبز، وكثير من التصفيق والتهليل والسرور.

اعتبره الخواجة موهوبًا بالسليقة، وضمه على الفور إلى الحالات التى يدرسها.

سأله مباشرة عن أحلامه، وكأنه يسأله عن حقيقته وأكاذيبه.

أسر له نورى بتفاصيل حياته بين الغجر، الفقر والترحال المستمر بحثًا عن أمل أو هربًا من المطاردات والشكوك، مازجًا الحقائق بالأساطير، مؤكدًا أن الأحلام خُلقت كى تكمل نقائص الواقع وتجمله.

التصق بجاك كمن عثر على قشة فى بحر حياته المظلم، اصطحبه فى رحلاته بين القرى المصرية مترجمًا للغة الغجر ودليلاً وحارسًا.

أدرك بشاعة واقعه، ليس بالمعايشة، فقد ألفه. ولكن من ملامح جاك وتقطيبته التى كانت تزداد كلما وقف على تفاصيل حياة ومعاناة الغجر.

توطدت العلاقة بينهما واصطحبه بعد انتهاء مهمته، فى جولاته حول العالم، فاتحًا له نافذة واسعة ليرى غجر إسبانيا، والمجر، وروسيا، وأخيرًا غجر تكساس.

أدهشه التشابه بينه وبين الغجر العجم. ولعهم بالموسيقى مثله ومراوغتهم للظروف.

اجتذبته آلات عدة واستقر على الكمان؛ لأنه الأكثر شجنًا. عرف كعازف كمان، ولكن القدر ادخر له حظًا أوفر حين تعرف فى تكساس على غجرى عجوز تخلى عنه أبناؤه وعشيرته أو تخلى هو عنهم، وتولى نورى إعالته فى أيامه الأخيرة.

كان خبيرًا بالموسيقى الغجرية، دربه داخل مقطورة على ألحان نادرة، وقبل موته بساعات أفشى له سر لحنه الوحيد الذى ألفه على مدار عمره، وضـم إليـه أروع النغمات الغجرية.

كان الغجرى يصارع الحمى، ويحلم بعزفه فى مكان عال وفسيح أمـام جمهـور يتذوق الموسيقى، لعله ينقل من خلاله معاناة الغجر ورغبتهم فى حياة كريمة.

مات عند الفجر محاطًا بهلاوسه السعيدة، واعتبر نورى اللحن إرثًا شـرعيًا له.

كان لحنًا مدهشًا، أدرك نورى روعته حين عزفه فـى أحـد بـارات نيـو أورليانز لأول مرة، فأكسبه القلوب والنساء والمال.

ادعى أنه مؤلف اللحن، متبعًا طريقته فى تجميل حياته بالأكاذيـب، صـدق نفسه، وصدقه الآخرون.

وكصاحب لحن حقيقى ومؤثر، كبرت رغبته فى الشهرة والمال.

وتأكد أنه قريب من تحقيق ذلك حين نشرت إحدى صحف لوزيانا المحليـة صورته، ويعزفه فى أحد بارات نيوأوليانز، معلقة أن الموسيقى الغجرية، لا تقـل روعة عن باخ وفيردى وتشيكوفيسكى.

اختلفت معه جيرالدين التى سحرها اللحن، كانت تـؤمن أن الـشهرة تفـسد الموهبة، وأنه يجب أن يكرس حياته من أجل لحن آخر.

ضحك فى سره؛ فلو فعل ذلك لمات مثل مؤلـف اللحـن الحقيقـى داخـل مقطورة. كان ممتنًا لطبيعته التى جعلته أكثر طمعًا فـى متـع الحيـاة، لا تغـشاه كالموهبين سطوة الإلهام وروعته.

لقد ابتكر أحلامه بنفسه، وطرز بها واقعه.

كان يفتقد الأب والبيت، فادعى وجود بيت كبير وأب عجـوز عـاش فيـه طفولته، ودارى فشله فى تأليف لحن بسرقة واحد... لم يعتبر نفسه كاذبًـا، فحـين

حكى لجيرالدين وهونج قصة اللحن رابطًا إياه ببيت كبير تركــه، كــان يخبرهمــا باحتياج حقيقى، ونادرًا ما يفعل ذلك مع النساء.

وحين اقتحمت حبيبة حياته مثل أضواء شفافة، عدل فى القــصة مــستلهمًا حكايته الجديدة من حبه المستحيل لها.

لم تبادله حبيبة مشاعره، فحياتها معقدة، متشابكة، مليئة بالأسفار والمهمــات الصعبة ولا وقت فيها للحب.

كانت مندهشة من حبه الملتهب وتخاف منه؛ فهو لم يرهــا ســوى مــرات معدودة.

لكنه لم يفقد الأمل، فى أن يحول حلمه بها إلى حقيقة.

قال لها فور استئجار هونج لبيتها، وكان لقاؤهما الثالث: "سأذكر قصتنا كما تمنيت حدوثها".

كان هذا هو الاختلاف الجوهرى بينه وبين جيرالدين، فهو يراوغ الواقــع، ويتحايل عليه، أما جيرالدين فتسعى وراء الحقائق، وتناطح العقبات بدلاً من تجنبها. ولم يجرؤ مسجلو الأحداث على قول الحقيقة، فاعتبروا ما فعلته من أجــل قــضية الهنود، أحلام يقظة؛ لأن الجميع يتثابرون ويصرون على استمرار الواقع كما هو. فلا يمكن الوقوف فى وجه أمريكا أو محاسبتها على ما فعلته مع الهنــود، أو مــا تفعله الآن مع أجناس الأرض المختلفة.

لقد علمته رحلته مع جاك وتعرفه على ظروف الغجر فى كــل مكــان. أن التاريخ إما مغفل كبير أو متواطئ مع الكاذبين؛ فلم يكتب عن الظلم سوى ســطور قليلة. والثورات الكبرى التى حدثت مثل نقاط ضوء نادرة ومتناثرة على صفحاته، سبقتها كوارث وملايين المنسيين.

(٢)

عبر شوكت إلى الجهة الأخرى من الزقاق.

فكر فيما حدث فى مقهى الإنترنت. لقد دفعته المرأة الشبيهة بالفأر إلى الاعتراف بسره. كانت صورة هونج تلح عليه فى قسوة وشراسة. شعر بالخوف. الحب فى هذا الزمن مخيف كالجنون. ضحك وبكى وأحس أنه فى ورطة. دخل إحدى العمارت المتهالكة، صعد سلّمًا معتمًا.

طرق باب غرفة العجوز شموئيل.

كانت هونج أثناء ذلك تقف أمام مسلة التحرير فى ميدان تيان آن مين.

هنا عزف تشانج مقطوعته دونج تشينج أثناء انتفاضة الطلاب منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.

دونج تشينج هى شمسه المشرقة، حلمه البعيد والوطن الذى فى خياله.

تذكرت ذهول نورى حين سمع تسجيلاً لها، اختنق صوته، ثم قال: "موسيقاه تدخل الروح ولا تخرج منها".

كانت الموسيقى لعنة تشانج وسببًا فى تمرده. صدحت فى رأسه أثناء اللحظات الحاسمة فى حياته. أخذته بعيدًا وهو يقرأ مقاطع من الكتاب الأحمر أو ينضم إلى حرس الحمر الصغار فى مدرسته وهم يقلدونه شارة حمراء أو أثناء لعبه الريشة مع رفاق يمسكون أعلامًا صغيرة حمراء، وأخيرًا دفعته للثورة لأن ألوانًا أخرى تسللت إلى أحلامه.

لو لم يمت يومها لقتله عالم اللون الواحد الذى يحيط به.

انسحبت بعيدًا عن الميدان إلى الشوارع الملتوية المعتمة.

انحنت أسفل أحد الفوانيس الشاحبة. هنا مات تشانج.

كانت التنهدات والصرخات القادمة من ميدان تيان آن مين تملأ الجو، وتحرك داخله لحنًا يشبه قوس قزح.

مات وهو يدندنه. أشرق وجهه كأنه وجد النهار أخيرًا. انفرجت شفتاه في مرح، كي يمزح مع الموت، أغمض عينيه على وعد بالحرية.

كان صغيرًا متهورًا، والشباب يغرس أنيابه في كل خلاياه ويدفعه لإبدال العالم.

آمن أبوها أن الشباب مرض يجب مداواته أو استئصاله، عارضته؛ فالشباب نبض الحياة ومعناها.

لكنها أعادت حساباتها بعد موت تشانج، وفاجأتها التساؤلات: حياة مديدة، راكدة، أم أخرى خاطفة مليئة بالضوضاء والأحلام والأفكار. تمنت لابنها الأولى، واختارت لنفسها الثانية.

إزدواجية أم وطأة الألم والفراق؟

كانت تحلم بابن تدلله إلى ما لانهاية. أن تلعب دور أم أبدية. وكي تتمكن من ذلك دون منغصات، فلا بد أن يتجرد صغيرها من المواهب، وينخرط في التفاصيل، أن يكبر على مهل، يتزوج وينجب، يستمتع بالوجبات الدسمة والحريفة، وأحداث المسلسلات الملفقة، وينظر للخارجين عن المألوف بوصفهم مجانين، يرفسون السعادة والدعة والدلال، من أجل أشواك الحقيقة ووهم الحرية وهلاوس التعددية، ولكن تشانج كان مثلها ممسوسًا بالأحلام والمخاطرة. استندت هونج إلى جدار قريب.

(٣)

جلس شوكت إلى جوار شموئيل "أخبرني مرة أخرى عن القسمة، قسمة جدى الأكبر الشيخ عماشة".

رفع الرجل جاوز المائة رأسه، وجد نفسه محاطًا بعشرات الخيالات والأصوات، التى انفلتت من ذاكرته، وتجسدت أمامه. ظهر الشيخ عماشة، كانت ذكراه عميقة وواضحة. ارتبكت الخيالات والذكريات، واختبأت فى عقل شموئيل مرة أخرى، مفسحة له الفراغ. تحرك الشيخ عماشة مثل عملاق خرج حديثًا من أسطورة، جلس القرفصاء فى خلفية من الألوان الضبابية، وتفحص ولديه بعينين عميقتين. وقسم دورهما فى الحياة، الكبير للتعلم فى أروقة الأزهر، والصغيرة - الذى صار فيما بعد جدًا لشوكت - للتجارة وللإشراف على ورشة الأنتيكات التى يملكها.

رأى شموئيل نفسه بين صبيان الورشة، لم يحدد الزمن، التفت إليه الشيخ عماشة، واتسعت ابتسامته: "هل ستأتى"؟

أجابه: "نعم".

لم يثنه الشيخ عماشة ومراجعته. له، كان مصرًا على الانضمام إليه، هو وولديه وباقى صبيان الورشة، لمشاهدة مسرحية عزيز عيد (سلم لى على إميلى) حتى لو خرق قوانين السبت المقدس.

كان يسكن وقتذاك حارة اليهود مع جدة متهالكة، تشبه الأشباح بعينيها الجاحظتين وعظامها البارزة ومثابرتها الخيالية على الشحاذة بين أزقة الحارة.

تكورت مثل حجر ذلك السبت البعيد، متشبثة بتعاليم الله، لا شحاذة أو خروج من البيت، أو إشعال نار أو نور أيام السبت.

انسلً شموئيل خلسة من غرفتهما المهدمة، حاملاً حشية من الخوص تصلح مقعدًا. رماها بنظرة مستخفة، الله يغفر كل الخطايا، ولن تحكم امرأة فانية مثلها وصايتها على السماء.

كان العرض فى أحد جراجات الأزبكية فى الهواء الطلق، لا مقاعد هناك، وعلى كل متفرج أن يحضر واحدًا.

انضم إلى الكارو التى حملت صبيان الورشة وأريكة كبيرة من بيت الشيخ عماشة ووسائد وحشايا كثيرة. تقدمهم الشيخ وولداه بمركبة مطهمة بالنقوش، يجرها فرسان قويان.

سار الموكب بين الأزقة والشوارع، متوجهًا إلى الأزبكية.

هز شموئيل رأسه بقوة لينفض عنه الذكريات، كم عمرها.. من أين تأتيه تبين وجود شوكت للحظات؟ ولكن ذكرى المسرح اجتذبته إليها مرة أخرى.

استعاد مقاطع من المسرحية، بهره الممثلون والديكور. شعر أن الدنيا تستحق أن تعاش؛ فهى مليئة بالأضواء والنغمات الساحرة والكلمات التى تضحك وتؤلم.

"القسمة.... القسمة".

كأنه يحاول انتزاع الإجابة من بئر عميقة.

لم يعد يذكر إن كانت عادلة أم لا. نشب تنافس خفى بين ولدى الشيخ عماشة أثناء الاستراحة. كان الابن الأزهرى أكثر تأثيرًا بتعليقاته الذكية وقفشاته الحلوة. انزوى أخوه الذى لا يجيد الكلام، لقد جعله العرض أكثر نقمة على قسمته.

لكنه انكسار لم يستمر، هاجس وقتى لم يتكرر.

تذكر شموئيل حالته يومها، هو أيضًا لم يسلم يومها من لعنة الانكسار، فقد أعادت له متع المسرح ذكرى راشيل، أجمل مخلوقات الله.

التقى بها داخل قصر أحد أثرياء اليهود، فى عيد الفصح السابق للعرض. ارتدى هو وجدته أسمالهما وتوجها إلى هناك.

نبهته الجدة "لا ترضى منهم بالقليل، الأثرياء بحاجة شديدة لدعائنا، بدونه لن تتحسن صورتهم أمام الله... نحن لا نشحذ". كانت راشيل، فى الحقيقة، تلعب بجوار تمثال مرمرى.

لمحتهما، فأصابها الفزع والشحوب، وشرعت فى بكاء هستيرى، كأنما هو وجدته شوكتان من جهنم انغرستا فى نعيمها الأبدى.

لم يشعر أنه فقير، بائس، تعيس، كما شعر فى تلك اللحظة، لماذا ذكره العرض بهذا الألم؟ هل غضب الله من طفل يهودى تمتع بالمسرح يوم السبت المقدس؟

غضب داخله رحمة، ونار تخللها برد وسلام.

"لا تحرمنى من نارك يارب... لا تترك صورتها تخرج من أحلامى".

انسلت صورة راشيل من أعماقه، واحتلت الفضاء كانت ملونة، مضيئة، عطرة.

(٤)

استغرق شموئيل فى وهمه اللذيذ، وبدأ مفاوضة طويلة مع الطيف الذى باغته. ابتسم، قطب، لوَّح فى الهواء. لقد تعود منه شوكت ذلك، أن تأخذه الخيالات بعيدًا "لا بد أنه خيال امرأة "تركه قبل حلول الظلام، كان الجو حارًا، والانتخابات الرئاسية تثير التساؤلات، والخوف، واللامبالاة.

توقف عند كشك جرائد، تناول صحيفة مطوية، احتلت صور المرشحين الصفحة الأولى.

"........."

نطقتها، ثم التفت حوله فى خوف. الحمد لله، لم يسمعه أحد.

كانت التعليقات تخرج مؤخرًا من أعماقه، حادة، جريئة، وقحة.

تكسر، المحظورات داخله، وتجره إلى مصير لم يخطط له.

سمع فى طفولته كلمة سياسة لأول مرة، عبر المذياع. فسرها له أبوه، بأنها كالتجارة مرواغة حول المكسب.

أما هو فاستنتج من الحكايات والأحداث التى مرت عليه، والجرائد والمسلسلات والأفلام والتفات الناس فى توجس كلما نطق بها. إنها خطر وطاعون، الأفضل الاحتراس منه.

فما الذى تغير فيه الآن؟ وجعله يريد كسر روتين حياته الأليفة، ويعلق تعليقات متهورة؟ فكر فى قريبه الشيوعى الذى حكى عنه شموئيل فى جلسات سابقة ولم تبق منه إلا ذكريات مشوشة فى ذهن اليهودى العجوز لا تزيد عن عينين كالبوقين وكلام له هدير.

لم يذكر شموئيل موته؛ فبعد أن جاوز المائة يبدو أنه نسى المــوت، تخيلــه يعانى من شيخوخة أخفته فى جحر كجحره، أو أوسع قليلاً، إذا كان قد بدل أفكــاره بأخرى تصلح سلمًا للصعود.

"لقد مات" قالها شوكت وسكت. من أين أتته الفكرة... لا يدرى، ولكنه كــان واثقًا أن قريبه الشيوعى مات.

لم يتمكن من الشرح، ولكنه فى الآونة الأخيــرة، تقمــصته روح متمــردة، أيقظت داخله جرأة لم يعهدها، أليس هذا دليلاً؟ ألا يمكــن أن تكــون روح قريبــه الهائمة حلت فيه، تريد أن تحقق بالموت ما لم تحققه فى الحياة؟

"........."

أطبق بكفه على فمه، والتفت فى رعب.

لا يريد أن تجره أفكار روح تقمصته إلى المجهول. رأى عناكب تخرج من أعماقه، وتطوقه، بخيوط رقيقة ولزجة.

"إنه واقعك...".

فسر شوكت لنفسه، قاوم هذا التفسير خوفًا من أن يلتقطه مجهول ويلفق لــه قضية ما، دون أن يكون له اهتمام أو هوى حقيقى بالواقع. كانت العناكب تنسل من أعماقه وتطارده.

أسرع الخطى ودخل أول مكان صادفه. وجد نفسه فى مواجهة "سامية"

داخل مقهى الإنترنت.

(٥)

اقتحم شوكت مقهى الإنترنت قبل إغلاقه بدقائق.

ارتبكت سامية ولم تدرى ماذا تفعل أو تقول. لقد بعثت خمس رسائل إلكترونية إلى هونج، ولم تتلق ردًا.

فكرت فى كلمات مواسية مثل... لا يهم، سأبعث برسائل أخرى... لا تيأس، القلوب الخضراء تستجيب أسرع للكلمات، ولكن هذا لا يعنى أن قلب امرأة جاوزت الخمسين قلعة، لا يمكن فتحها. قد تتحصن بأشواك التجارب المؤلمة التى مرت بها. قد لا تصدق الحب حين يطرق بابها.

ولهذا فهى تحتاج إلى معالجة... اصبر.

لم يخطر ببالها أن بريد هونج الإلكترونى، يمتلئ كل يوم بمئات الرسائل المبعوثة إليها من أنحاء العالم.

لقد عثرت على إحدى رسائلها، ولكن تحذيرًا قرأته على شاشة اللاب توب، إنها حاملة لفيروس إلكترونى خطير، جعلتها تتراجع عن فتحها ومحوها.

أما ماذا كان سيحدث لو قرأت ما بها فهو سر، حتى هونج نفسها لم تكن لتخمن رد فعلها.

كانت تكتب بطاقات مليئة بكلمات الحب، وتضعها فوق أكاليل الزهور التى تنسقها، وتبدو رومانسية لكل من تعامل معها، ولكن تجاربها المرة جعلتها أكثر تشبثًا بصخور الواقع وكلمة العقل؟

لم تتمكن من الإجابة عن تساؤلات تراودها كل حين، مثل لماذا يخفق قلبهـا كلما فكرت فى نورى، كيف عثرت على رسائله فى بساطة بين مئات الرسائل التى تزحم بريدها الإلكترونى، من أين تأتى إبداعاتها الرقيقة فى تنسيق الزهـور التـى تشبه فى روعتها وهم الحب؟ لماذا لا تنجح حسابات العقل فى كثير من علاقاتهـا الشخصية. لقد تغلبت على حزنها وواقعها بالخيال؛ فكيف تتنكر لكل مـن يغويـه خيال الحب؟

كانت هذه الأسئلة تربكها وتشطر أعماقها نصفين، نصف يحاول حمايتها من الألم، ونصف يدفعها للتجربة والحرية والتحليق.

اندفع شوكت إلى داخل المقهى، لم يخطط للذهاب إلى هناك أو يفكـر فـى الحب.

كان هاربًا من شىء لا يذكره. وجد نفسه يحدق فى سامية بجرأة أخرسـتها. خطر له فى تلك اللحظة أن يغوى امرأة... أية امرأة.

بدت له سامية بوجهها المثلث وجسدها الخالى من الأنوثـة، صـيدًا مثاليًـا وسهلاً.

لم يشعر بانجذاب تجاهها، وهذه ميزة إضافية؛ فإغواء امرأة لا تهمه أسـهل من نيل واحدة تملك كيانه.

فوجئ بأفكاره، ما الذى تغير فيه؟!

لقد مرت عشرات النساء فى حياته، دخلن وخرجن دون أن يحاول الاقتراب منهن إلا فى أحلامه، الآن يريد أن يجرب إغواء حقيقيًا وضحيته امرأة لا تغريه.

كأنه مدفوع إلى ذلك، من قوة قاسية وشريرة، استحوذت عليه، وأصـبحت تتحكم فى مصيره.

ولكن المغامرة فجائية، ولم يستعد لها.

حاول الكلام عن سحر المرأة التى أمامه وغموضها، ولـــم ينطـــق بكلمـــة. لمحت سامية عينيه الجائعتين وأدركت مراده.

شعرت بالخيبة، رغم معرفتها الواسعة بالناس.

خطر لها حين التقت به لأول مرة أنه مختلف عن غيره من الرجال.

هل هى قاعدة إذن؟ مادام رجلاً فلديه استعداد طبيعى للخيانة، دون أن يعتبر ذلك تعارضًا مع الحب وصدقه.

امرأة يحبها وواحدة يقتنصها من أجل مغامرة.

فجأة تخلت عنه جرأته. وعاد إليه شوكت المتردد، المتعلق بالأوهام، الخائف من ظله الذى يؤثر السلامة، ولا يعرف عن المرأة سوى ما قرأه فى الكتب، ومـــا استشفه من زواج سعت إليه وأنهته وداد.

(٦)

لا يدرى شوكت كيف تحولت مغامرته مع سامية إلى موقف حرج، ولا كيف أفلت منه .

هناك شيء يتبدل داخله، ويجعله إنساناً آخر لم تعد تستهويه اهتماماته السابقة؛ فمن يصدق أنه توقف عن الرسم منذ شهور. كان كاريكاتيره الأخير يتكون من بقع سوداء متلاحمة، كأنما هو نبوءة بأنه لن يعاود الجلوس إلى أوراقه وأقلامه. كان يطمئن نفسه بأنها فترة طارئة، لا يلبث بعدها أن يتصالح مع الإلهام. ولكن الوقت مر، ولم يعاود الرسم ازدادت عصبيته، وتضخمت المشكلات من حوله، وخاصة مشكلة مرض ابنه. لم يعد لديه أمل حقيقى فى شفائه. كانت أشباح اليأس تتكاثر داخله وتزداد عتامة كلما أوغل فى مراحل العلاج.

كان يتساءل كل لحظة "ما ذنبى... ما ذنبه؟"

لم يكن باستطاعته مواصلة الطريق، والاحتفاظ بشخصيته ومفاهيمه وقناعاته فى الحياة كما كانت.

فوجئ بأفكار وأحلام كانت نائمة فى أعماقه، تحاول باستماتة الآن، كى تفلت منه وتجد طريقها إلى النور.

كان هذا يحدث دون تحكم حقيقى منه وكثيرًا ما ولدت فكرة وحركته ثم انطفأت، ليجد نفسه متورطًا فى مغامرة ما.

حدث هذا عقب واقعته مع سامية بأيام. كان مارًا آنذاك أمام إحدى زوايا الصلاة بعد العصر مباشرة.

برقت فكرة داخله، ووجد نفسه مندفعًا نحو جمع لا يعرفه قاصدًا رجلاً يتوسط الجمع ويخطب فيه "إسلامية.... إسلامية".

رفع الرجل ذو اللحية المشعثة والجلباب القصير القرآن بيد وعصا رفيعة بالأخرى "فلنجاهد أعداء الله، فلنقاطع أموال الدولة... الحرام... لتسقط أمريكا حليفة الشيطان".

جذبه شوكت من لحيته "هل قرأت القرآن... هل فهمته؟! أنت لا قرأته ولا فهمته...".

اهتز الرجل واختنقت الهتافات فى حلقه، ولكن الجرأة فارقت شوكت كالعادة ودون مقدمات، وتركته فى مواجهة خصمه العملاق.

شعر أنه تهور. من الممكن أن يكفره الرجل ويُحل دمه، أو ينادى أتباعًا مختفين خلف النوافذ وفى الأزقة المحيطة بالمكان، ليصدروا حكمًا عليه "إنه مثل الحكومة.. فى ضلال.. وقتله حلال"

شعر بالخطر، وبدا له أن أمره منتهى، لولا حشود الأمن المركزى التى بعثها الله إليه لتطوق الزاوية وتقبض على الملتحى.

علا هدير بين متجمهرين توافدوا حول الزاوية، لم يتمكن من تفسيره، تهامس رجلان على مقربة منه، عن مصير الرجل.

ولكن شوكت لم يلتفت إليهم، المهم هو نجاته، هتف وهو يشيع الملتحى المحاط بالعسكر إلى سيارة الأمن المركزى الحصينة "إرهابى..".

وانسحب من المشهد بسرعة.

وصل بيته يومها عند منتصف الليل. كان لا يزال يفكر فيما حدث.

مر أمام الشقة المفروشة. تذكر صادق الطالب الذى انتحـر داخلهـا منـذ شهور. استرجع صوته وقسماته "لقد ظلموه...".



الفصل الخامس

(١)

جلست هونج فى أحد مقاهى حى هايديان ببكين، كما كانت تفعل كل عام.

كانت تبحث عن ذكرياتها هناك. وحين استمعت هذه المرة إلى مقطوعة "داو لونج" هُيئ لها أن أعماقها التى تعزفها، لا عازفة الجيتار التى تنقلت بين الموائد.

كانت المقطوعة الأولى التى ألفها تشانج، لم يكن وقتها تجاوز السابعة عشرة، هاجمه الإلهام فى صورة حمى شديدة وقلق وهذيان. حاول مقاومته والهروب منه بفناجيل القهوة والسجائر ولعب كرة الريشة. ولكن النغمات تراكمت داخله، وانفجرت كالعاصفة، وحركت أوتار جيتاره وأحلامه ودموعه. قبل أن يكتمل اللحن تقطعت النغمات، فازداد توتره وخوفه، فتوافدت النغمات عليه بطيئة.... متباعدة، وأحس كأنه يبحث عنها فى صحراء. أسمى لحنه النهائى "داو لونج" ليصف حالته أثناء اقتناصه، فقد كان كالسائر فى الصحراء.

استمر العزف، ومضى وقت قبل أن تنتبه هونج إلى أن عازفة الجيتار هى مصدر النغمات لا أعماقها.

تبينت ملامحها... ولم تصدق: "وانغ"

التفتت وانغ إلى المائدة التى تجلس عليها المرأة الخمسينية. لم تتعرف عليها بسهولة. لقد تغيرت، صارت أكثر هدوءًا وحزنًا، ولكنها عرفتها فى النهاية، فمن الصعب نسيان أكثر النساء شرًا.

جعلتها الكراهية عالقة فى ذاكرتها كل هذه السنوات.

وجدت نفسها أمام الساحرة الخبيثة هونج، العقبة الكبرى فى طريق حبها لتشانج.

تأكدت هونج من شخصية عازفة الجيتار، وارتبكت حين أشاحت وانغ بوجهها، وتوقفت عن العزف لحظات؛ فهل تراها أخطأت فى حقها؟

كانت واقعية شعرت أن علاقة تشانج بهذه الويغورية المسلمة مثل قطعة السكر، لا تلبث أن تذوب؛ لأن تشانج كان يتكلم عنها كأنها الحلم، وهو ما جعل هونج تؤمن بعدم وجود أرض صلبة لمشاعره القوية. لم تكن تريد لهما الفشل في الحب.

اقتربت وانغ من المائدة في تحد وواصلت العزف، لم يفشلا. لقد أحبها تشانج حتى النهاية.

تذكرت تفاصيل حبها الوحيد. كانت قادمة من كاشغار حديثًا وبكين بالنسبة إليها الدنيا الأرحب، لا يؤنسها سوى الجيتار وطموح أبويها، الموسيقى.

حيث ولدت مثل الهواء، ولكن أبواها لم ينظرا إليها كمهنة. كان عليها أن تنحت طريقًا آخر للمستقبل. التحقت بالجامعة المركزية للقوميات ببكين لدراسة الاقتصاد.

استمرت في دراستها الجافة سنتين، ثم خطر لها أن تتعلم الإنجليزية لسبب لم تعد تذكره الآن.

كانت على موعد القدر والحب وتشانج؛ فذات يوم اختار لها أستاذ الإنجليزية فتى ممشوقًا، واسع العينين، كي تتدرب معه على المحادثة بهذه اللغة.

بدءا هناك حوارًا لم ينقطع بعد ذلك أبدًا. تكلما في الحياة، الحب، الموسيقى، الدين. عرف أنها مسلمة من كاشغار ولم يعلق.

وجد في عينيها الكون الواسع وشجعته على الخروج من قمقمه والتحليق.

اتفقا واختلفا. كان يؤمن بضرورة محاكاة الغرب التامة من أجل تحديث الصين، عارضته "فلنصنع ديموقراطيتنا الخاصة لن يحترمونا لو أحببناهم بشدة وكرهنا أنفسنا"

اقتربت وانغ أكثر من المائدة ودارت حولها.

لم يبق من ذلك الحب سوى الذكريات والموسيقى وقشرة لوز بداخلها سبعة وعشرون عازفًا من العجين، أهداها لها تشانج في الذكرى الأولى لتعارفهما، وتضعها وانغ حول عنقها داخل قلادة من الفضة. الذكريات والموسيقى وقشرة اللوز هم دافعها إلى الهروب من حياة فرضت عليها وحاكتها التقاليد وتوقعات الآخرين.

بعد موت تشانج عادت إلى كاشغار لتجرب الحياة الواقعية. استقر داخلها يقين أن الأحلام لا تفيد ولا تتحقق، عملت موظفة بمدينة كاشغار، وتزوجت من زميل لها.

صبرت إلى أقصى حد، واستمرت في الحياة الرتيبة سنوات.

لا تذكر كيف نمت بذور التمرد داخلها العام الماضي، قبل ذلك بكثير، في كل ذكرى لأحداث تيان آن مين؟

لا تدري، ولكنها نظرت ذات يوم في المرآة، ولم تتعرف على نفسها، بعدها قررت ترك كل شيء: الزوج، الوظيفة، الحياة المستقرة، والعودة إلى بكين.

لم تحمل معها سوى الجيتار وقشرة اللوز وتسجيلات لموسيقى تشانغ.

عملت عازفة بالمقهى الذي جلسا فيه، يتدربان على جمل الحب والحياة الإنجليزية، ولا يهم ما قاله في أثرها الأقارب والجيران.

يكفي أنها تعرف الحقيقة، لقد سارت سنوات في الطريق الخطأ.

اختنقت أحلامها، ولم يعد ممكنًا أن تستمر، لن تعيش باقي عمرها دون حلم ابتعدت عن مائدة هونج دون كلمة أو إشارة تنم عن التسامح.

(٢)

تلقى نورى اليوم رسالتين بالبريد الإلكترونى.

الأولى: كانت من هونج، تخبره فيها عن أيامها فى الصين التى امتدت شهورًا دون تخطيط منها "هذه المرة أريد مواجهة جراحى، لا يمكن أن أبتسم وداخلى يصرخ، لم يعد ممكنًا ادعاء أننى تجاوزت ألم فراق تشانج"

أخبرته عن وانغ وتفاصيل لقائهما "أشعرتنى أننى جانية متوحشة، كل هذا لأننى نصحت تشانج بكلمات مثل... تمهل... فكر... ليس كل ما يحرك المشاعر حبًا"!

هونج

الرسالة الأخرى أرسلتها جيسيكا. كانت مختصرة ومؤثرة كنصل سكين/

عزيزى الأب الحائر:

وصلتنى أخبار عن رمزى اليوم تقول إنه على قيد الحياة. أرجو أن نلتقى قريبًا كى نتحدث فى الأمر.

جيسيكا

جلس نورى على ضفاف النهر الأحمر يكتب رد الرسالتين

عزيزى هونج

ابنى على قيد الحياة، هذا ما عرفته منذ لحظات. أما قسوة وانغ معك، فهى دليل على أنها تتألم كل لحظة بسبب أشباح الماضى... تصورى؟! إنها تتألم من

أحداث ومواقف لم يعد لها وجود. لو كانت قسوتها حقيقية لداست على ذكرياتها الحزينة ولصافحتك بابتسامة باردة، ولسألتك من أنت؟ آه أم الولد الذى أحببته يومًا. أتذكره أحيانا بين مئات الذكريات التى تلته. لقد كنت محقة فى معارضة هذا الحب لأنه الآن خلفى... لا أراه ولا أفكر فيه، ولكنها لم تتجاوزه يا هونج حتى الآن؟.

المسكينة لم تتجاوزه...

نورى

تردد كثيرًا قبل الكتابة لجيسيكا.

بدأ الرد "عزيزتى جيسيكا" محاها وكتب "ابنتى الحلوة جيسيكا "محاها ليكتب "حبيبة ابنى جيسيكا".

محاها، أغلق اللاب توب، تساقطت دموعه.

(٣)

لا يذكر نورى متى تمالك نفسه وكتب جيسيكا ردًا من أربع كلمات

"سأكون عندك خلال يومين"

ولكن هذا اللقاء لم يتم قبل شهر، وكان فى المستشفى العسكرى بتكساس.

لم يتعرف نورى على جيسيكا بسهولة كانت جالسة على أحد المقاعد، تتأمل صور رمزى. كان وجهها شاحبًا وقلقًا. أعطت نورى بعض الصور فغرق فى تفحصها دون كلمة.

انضمت إليها بعد ساعات من وصوله. عجوز مشعثة تشبه ساحرات القصص الخيالية.

مسحت العجوز دموعها وحدقت فى الفراغ

"أما زال بغرفة العمليات"

أومأت جيسيكا وقالت

"سأذهب لأطمئن"

انصرفت. تابعتها المرأة حتى نهاية الممر الطويل، أمسكت قلبها بكلتا يديها.

كان نورى يتأملها، ويحاولها التعرف عليها.

اقتربت منه العجوز، نظرت فى عينيه، وقالت فى بساطة:

"أنا جيرالدين لم تعرفنى الآن لأنك لم تفعل فى الماضى".

سلمت عليه دون اكتراث... إنه نورى الذى يظهر فى أحلامها، ويختفى مثل الأشباح. أجزمت أن ظهوره لا يعنى عودته.

اندهش نورى، فوجوده لم يفاجئها، كأنها تنبأت به. تكاثرت عليها المصائب ولم تكسرها، كان بإمكانها دائمًا رؤية ضوء خافت يطل من المستقبل على كروبها وأحزانها وهزائمها.

"هل رأيته؟".

واجه نورى أصعب سؤال فى حياته؛ فقد رأى رمزى ولم يره.

اصطحبته جيسيكا إلى مخلوق بلا وجه ولا أنف ولا شفتين ولا فـك، كـان مخدرًا ويستعد لإجراء عملية أخرى.

أخذت منه جيرالدين الصور.

"فلتنس الصور، لا تطبع أى ملامح فى رأسك"، سكتت فجأة، كأن النصح لن يجدى معه، خمنت أنه لم يتغير.

اعترض نورى كأنما استشف ما فكرت فيه.

"طوال الشهور الماضية أبحث وأفتش عنه".

برقت عيناها لا يزال قادرًا على قراءة أفكارها.

"تأخرت"

قالتها بحدة وبرغبة شديدة فى أن تجرحه.

انكمش نورى على مقعده، أراد الهروب من الواقع الرهيب الذى يحيط بــه. فكر فى حبيبة، حاول استرجاع ملامحها الرقيقة ليخفــف ألمــه همــس متوســلاً "حبيبة... حبيبة... تعالى... أريد أن أراك... لحظة واحدة.... واحدة من فضلك".

لم يتمكن من رؤيتها. فتح عينيه ونظر حوله، كانت جيرالدين تخترقه بعينيها كأنما تقول:

"لن أسمح لك... لن تهرب إلى أفكارك الحلوة... ابق معى وتعذب".

***

تجول نورى وحيدًا فى ممرات المستشفى العسكرى فى المساء. وجد نفــسه متجهًا إلى باب الخروج. لفحة هواء الليل، وكانت النجوم متلألئــة فــى الــسماء، وهناك لمح وجه حبيبة مليئًا بالضوء. لقد اختلف وجهها عن السابق.

لقد تعود خياله أن يكمل كل نقص فيها، فابتــسامتها اســتخفاف بــالكروب ونظراتها حزن على البشر حتى صارت أكمل من أن تحبه.

أين هى الآن؟

منذ أربع سنوات، وبعد تعارفها بأيام، أخبرته أنها على وشك القيام برحلــة. الأماكن التى ستزورها، والوقت الذى ستقضيه فى كل منها، لا تستطيع تخمينه. قد تعيش فى أماكن بعيدة عن التكنولوجيا... فى جبال أو صحراء أو قــرى أســقطتها الخرائط، قالت له:

"اكتب لى... لا تتوقف مهما حدث".

(٤)

فتح شوكت باب الشقة المفروشة التى انتحر فيها صادق منذ شهور. استقبله شبح صادق فى منتصف الصالة، تعلوه مسحة حزن، كأنه مازال يتذكر هزائمه فى الدنيا.

فوجئ شوكت، وشعر بالخوف والندم، ما الذى دفعه إلى الداخل، وجعله يغامر بلقاء عفريت؟

كان يومه مليئًا بالمغامرات؛ ففى الصباح شهد حشودًا خرجت من جامع الأزهر، تندد بكاريكاتير دنماركى يسىء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، رفعت لافتات من حوله تكفر من يبتاع المنتجات الدنماركية، وملأت الهتافات أذنيه:

"فداك يا رسول الله"

"إلا أنت يا رسول الله"

كان يحتسى الشاى على مقهى قريب. لحق بهم وهتف معهم، بكى وانسابت دموعه. اندهش من نفسه، فلم يكن فى أى وقت منشغلاً بالدين.

كان الغضب يدوى، واللافتات تزداد. كان كل شىء مختلفًا ولا يشبه المظاهرات السياسية الهزيلة التى شاهدها من قبل فى شوارع القاهرة الشهور الماضية. خطر له خاطر غريب.

"لا أمل"

وفى المساء، تملكته الفكرة نفسها "لا أمل" أثناء مروره بالشقة المفروشة.

دقائق ووجد نفسه بالداخل، لا يذكر كيف حدث هذا، ولكنه شعر بالخوف منذ الوهلة الأولى، وهم بالخروج.

استوقفه صادق ولوح له بقلم من نور.

وجنتاه أكثر شحوبًا وابتسامته مثل هلال مضىء.

بادره قائلاً:

"وجدتها"

كان صوته يشبه هدير موج.

وقبل أن يسأله شوكت استمر يقول

"أعنى الجمل التى أردت كتابتها فى المسرحية.... لقد أزاح الموت الحاجز بينى وبين الإلهام. هنا (هز القلم) حرية التعبير متاحة".

جلس خلف مكتبه، رتب أوراقه، وكتب كلمات بقلمه النورانى.

"المشكلة أن الحكايات اختلفت بعد الموت، الصراعات تضاءلت والحقيقة تقال ليل نهار، لذلك أزور الدنيا من آن إلى آخر بحثًا عن حبكة".

أخبره شوكت عما يضايقه، وسأله "أحقًا لا أمل"؟

استدار صادق "سأرحل الآن".

"أخبرنى بالإجابة أولاً".

همهم صادق فى ضيق "مازالت الدنيا كما هى... أسئلة... أسئلة بلا إجابات... بلا حلول".

(٥)

صارت الشقة المفروشة ملاذه. فى المرة الثانية التى دخلها، كان عائدًا من عند شموئيل.

دخل وفى نيته البقاء دقائق ولكنه بات ليلتها هناك.

كانت الأفكار تأتيه صافية وواضحة كأنها من فعل أرواح وعفاريت سكنت المكان. رتب هناك ما قاله شموئيل فى بساطة. إذن لقد بدأ الشقاق بين جده التاجر وشقيقه الأزهرى بمقال نشره الأخير بالأهرام فى الثلاثينيات. ملخصه ازدراء حياة المساومة والبحث عن المال، التى كاد يغرق فيها لنشأته فى بيت أكبر تجار الموسكى، وفرحته بالنجاة من هذا المصير، ليستأنس بالعلم وملذات العقل وعجائبه.

سأل:

"كيف وصل المقال إلى جدى التاجر"؟

قرأ الإجابة فى عينى شموئيل:

"ليست مشكلة... هل هى مشكلة".

ضحكا، بعدها غاص شموئيل فى أفكاره، وانتقل لسرد خرافات أخرى.

التقط شوكت طرف الخيط وفسر به القطيعة الأبدية بين فرعى العائلة. فهم لماذا أصر جده أن يخرج أحفاده من قوقعة التجارة إلى بحور العلم .

اقترب منه كطيف أبيض ذات يوم بعيد وسأله:

"ماذا تحب فى المدرسة"؟

أجاب دون تفكير "الرسم".

ثار الجد واكفهر وجهه وتكدر، اعتبر حب حفيده للرسم اعوجاجًا يضرب مخططاته وأحلامه، ولا بد من تقويمه مبكرًا. قرر كتابة وصية ممهورة بختمه تلزم شوكت وما سوف يكون له من أبناء بدخول الجامعة، وأن يصير أحدهم وزيرًا؛ لأن أحد الجامعيين فى الفرع الآخر من العائلة، تقلد منصب الوزير فى عصر عبد الناصر.

واضطر شوكت أن يكتم أفكاره المزدحمة برسومات وخيال جامح، واستمر فى الرسم سرًا.

كل هذه الخواطر وأكثر خطرت له فى ليلة واحدة من الليالى التى باتها فى الشقة. وذات صباح استيقظ على فكرة أضاءت عقله، من الممكن أن يكون مرض يوسف خوفًا من مستقبل أعد له وتمرد على وصية الجد. راقته الفكرة كثيرًا وأفكار أخرى واتته وهو يتجول فى الشقة، أو أثناء جلوسه فى غرفها.

وفى إحدى المرات استقبل مكالمة من هونج على هاتفه المحمول.

واستطاع أن يستشف من صوتها ما لم يعرفه من مكالمات سابقة، وقال: "لن تعودى قريبًا، أعرف ذلك".

هناك شىء غامض فى الشقة جعله أكثر استبصارًا كأنما تظلها شياطين عاكفة ليل نهار على ترجمة الإشارات الخفية وما بين سطور الحكايات.

لا يذكر متى خطر له التقليب فى أوراق صادق، ولا كيف وجد المسرحية التى ألفها، وكان يستعد لتمثيلها.

اعتبرها فى الأيام التالية اكتشافه وتسليته الوحيدة.

كانت ذات عناوين:

"عزف الناى" و "الحفل الموسيقى".

قلب شوكت الأوراق، وبدأ القراءة.

المشهد الأول. مكان فسيح غيرمحدد المعالم. مجموعة من الشباب يهتفون "الإسلام هو الحل" يقف بينهم (س) بجلبابه القصير، وهيكله النحيف ونظراته التى تشبه نظرات فأر خائف.

رجل مهيب، عريض المنكبين، نافذ النظرات، يتململ فى جلسته فوق منبر مرتفع، ويجيب على أحد الأسئلة "أعوذ بالله، العلمانية بفتح العين وليس بكسرها، ضد الفطرة؛ فهى تتجاوز حدود الإنسان، وتجعله المشرع والحاكم، فكيف يفعل ما ليس له".

هتاف: الله أكبر الله أكبر

(س) يرتجف من الخوف ويبكى.

اعتدل الرجل المهيب فى جلسته ليجيب سؤالاً آخر "يا شباب الإسلام وجنود الله، أخوكم يسأل ما حكم العمل فى المؤسسات الحكومية، وقد أجبت عن السؤال مرارًا وتكرارًا فى جلسات سابقة، ما بنى على باطل فهو باطل ".

سؤال من الأخ الملاصق لـ (س): "ولكن لو ترك أبي الوظيفة نموت من الجوع؛ فهل هناك حل أو مخرج يا سيدنا".

امتعض الرجل الجالس فوق المنبر:

"نق سريرتك يا بنى".

أراد الولد الاستمرار فى النقاش، فرده الشيخ بحسم "الجدل من عمل الشيطان فلا تجادل وأخلص التوبة"

بعد هذه انقطعت الكتابة هناك نقط كثيرة وعلامات استفهام.

بعد عدة سطور:

الشيخ المهيب يركز نظراته على (س)، ويحتجزه بعد نهاية الخطبة: "الأمر جلل يا بنى".

امتد حديث هامس بينهما.

ربت الشيخ على كتفيه "بورك فيك... بورك فيك يا بني".

(٦)

كتب صادق فى أحد الهوامش "أشعر بالاختناق".

انقطعت الكتابة صفحات بعد ذلك، ثم طالعته دوائر كبيرة كأنها مشانق تلتف حول عنق خفى.

انقبض صدر شوكت كأنه مر قبلاً بتلك المشاعر أو يمر بها الآن .

لم يحتمل شوكت، توقف عن الذهاب إلى شقة الطالب المنتحر أسابيع. حاول التخلص من تلك الانقباضة. استغرق أكثر فى العمل، وتابع حالة يوسف ودربه على قصص مصورة جديدة. كان لنطقه بعض الكلمات المفهومة أثر كالسحر عليه. وهيئ له أنه نسى دوائر صادق إلى الأبد.

ولكنه فوجئ بها تتشكل فى ذهنه كاملة فى صباح يوم شتوى حين دخل زبون فرنسى محله فى خان الخليلى، محتميًا من مطر انهمر فجأة، رغم بزوغ الشمس.

بدا الرجل الأشقر النحيف غير مهتم بالأنتيكات المعروضة، ثم فجأة تسمرت عيناه فوق زهرية فضية، تناولها فى لهفة، وتأمل الخطوط المرسومة فوقها.

سأل شوكت أكثر من مرة وأجابه الإجابة نفسها بالإنجليزية تخللتها كلمات فرنسية:

"I draw this ....oui ,oui"

اندهش الرجل، وعاود تأمل المزهرية وتقليبها. أثنى على خطوطه الكاريكاتورية، قائلاً: إنها خطوط فنان عالمى. انتفخت خلايا شوكت، وأحس أنه عملاق قدر له أن يعيش حياة ضحلة، وأن يحبس رسوماته الذهبية فى محل ضيق،

وانتابته أحلام يقظة أنها تخترق الحدود والثقافات واللغات وتؤثر في الجميع. ولأن الأحلام كانت بهيجة والواقع مختلف عنها، شعر بالسخط والأسى؛ لأنه لم يكتشف نفسه في الوقت المناسب، لينجو بموهبته إلى الدنيا المتقدمة.

لكنه أفاق من أحلامه على حقيقة مؤلمة. لقد توقف عن الرسم منذ شهور.

عاد إلى الشقة ذلك اليوم. تأمل الدوائر التي رسمها صادق طوال عشر صفحات. وحين ظهرت كتابة بعد ذلك، تردد في قراءتها، وتملكته رهبة. كان خائفًا من الكلمات، أن تفعل به ما فعلته الدوائر، وتضعه في مواجهة مع ظنونه وأحلامه المكسورة وصراعاته.

(٧)

تطلعت جيسيكا إلى غرفة العمليات.

"عملية أخرى... ".

لم تكن تدرى أى جزء سيبترونه هذه المرة. تصلب وجهها

"لا بد أن يتوقف كل هذا... إنهم يقتلونه آلاف المرات..."

تكاثرت داخلها الأسئلة مثل سحابات سوداء.

"هل يمكن بتر ذراعه وأصابعه وأذنه وأنفه وتظل روحه كما هى؟"

كان رمزى يتحول بعد كل عملية إلى مخلوق خيالى، قادم من حكاية قاتمة أو داخل فيها. لم تعد تتعرف عليه بسهولة. حاولت كتم الدموع، وادعاء أنه الشخص نفسه. فعلت هذا طوال أربعة شهور قضتها إلى جواره فى المستشفى العسكرى... كانت خائفة من نفسها ولا تعرف إن كانت لا تزال تحبه.

انهمكت فى الضغط على أزرار الكمبيوتر الخاص بها. تجولت بين مواقع مختلفة. فى الماضى كانت تقرأ فى شغف وصفات العناية بالبشرة، وآخر صيحات الموضة والمكياج وتفتش عن فضائح المشاهير وأخبارهم، وخاصة كل ما يتعلق ببراد بيت.

كل هذا بدا لها مؤخرًا خاليًا من الروح والحياة. كان الألم يعشش داخلها.

تطلعت إلى غرفة العمليات.

"لم يخرج بعد... متى يخرج...؟!"

اقترب منها رجل، حدق فى الشاشة: "ما أخبار الإعصار؟"

"أى أعصار؟"

لم يعرها اهتمامًا، وانشغل بالضغط على أزرار الكمبيوتر، وتتبع الأخبار.

التفتت إليه لتعيد سؤالها، ولم تجده كأنما انسل من أوهامها.

استغرق الأمر بضع دقائق أخرى والتجول فى بعض المواقع، كى تتأكد من الخبر. هل حدث هذا لنيوأورليانز مدينة طفولتها؟ أحست أنها تهيم فى كهف شديد البرودة بلا بيت أو ذكريات، كلما طالعت صور المنكوبين وقصصهم..

تبينت من بين الصور وجه جارتها الزنجية الغامضة، كانت مستلقية فوق قارب نجاة فاقدة للوعى. تذكرت زيارتها إلى هيلدا والأسرار والخطط التى تبادلاها من أجل محاربة العنصرية.

تجاوزتها إلى صور طفل صغير، مد ذراعه نحوها، وحكى لها ما حدث.

"هجم الإعصار علينا، كأنه شياطين الحكاية التى كانت تحكيها لى جدتى، لم أكن أعرف كيف دخلنا حكايتها ومتى سنخرج... صعدت جدتى بى إلى سطح المنزل وانتظرنا كثيرًا بلا أمل... ثم حدثت المعجزة، ومر بنا قارب نجاة استطعنا بصعوبة الوصول إليه.. كان كل شىء يطفو حولنا الأجساد والبيوت واللعب والمقاعد والأسرة والأشجار والمرايات والصور العائلية ماتت جدتى داخل الحكاية المرعبة، ووصلت وحيدًا إلى ملعب نيو أورليانز".

على صفحة تالية أفاقت جارتها الزنجية، واستوقفتها بصوت يشبه النقيق.

"حملونا إلى ملاعب المدينة، فى المنطقة المرتفعة من نيو أورليانز، كنت نصف واعية، وفى فمى طعم المرارة. انتبهت إلى مشهد رجلين يتعاركان، غرز أحدهما نصلاً حادًا فى صدر الآخر، اقترب منى زنجى ضخم، ربت على كتفى، ثم

أمسكنى بقوة محاولاً اغتصابى، كان فى عمر ابنى، ولم أكن لأفلت بسهولة، لــولا أنه توقف فجأة وبكى".

شعرت جيسيكا بالتعب، وأن ما يحدث أكبر مـــن احتمالهـــا، ضـــغطت زر الإغلاق، وقبل أن تختفى الصفحة، هتفت الزنجية "نحن الزنوج...".

واتسعت عيناها بكلمات أكثر

(٨)

أصيبت جيرالدين بنوبة صرع، أثناء انتظارها فـــي اســتراحة المستــشفى العسكرى فى تكساس. كان نورى قريبًا منها فى بداية النوبة.

وهيئ لها أنها صفعته. أفاقت، لم تكن واثقة مما فعلت.

لا تزال جالسة على المقعد المواجه له، فى انتظار خروج رمزى من غرفة العمليات.

لمحت جيسيكا عبر الحائل الزجاجى، كانت منكبة على الكمبيوتر الخـــاص بها. وقفت امرأة بدينة فى الممر وأمسكت بالإنجيل، غير بعيد عنها استند رجـــلان نحيفان إلى الحائط، انحنى أحدهما على الآخر فى حديث متواصل.

قام نورى، واتجه نحوها "هل أنت بخير؟"

شعرت بارتباك حين خطر لها أنه عرف بمرضها، ورآهـــا فـــى لحظـــات ضعف.

سألته:

"ما الذى حدث؟"

أجاب:

"لا شىء... لم يحدث شىء"

استشعرت فى نبراته معانى خفية، كأنه يقول لا تهتمى، لن تؤثر فىَّ صفعة من عجوز مريضة، حتى لو كانت مؤلمة.

كتمت غيظها، لم تغيره السنوات، نورى هو نورى. لم يكن يهمه مـــا وقـــع بالفعل، يمكنه إصلاح ذكرياته وتبديلها. أن يحـــول الـــصفعات والوقـــائع الأليمـــة وتعاسته إلى أحداث مبهجة.

أنقذه خياله من الألم، أبدع له عالما من الوسائد الحريرية، حماه من خدشات وكدمات الروح، أما هى فلم تكن تخشى أن تعلم فيها الجروح.

اعتبرتها أوسمة علامات نصر ودليل على مناطحتها لصخور الواقع.

لم تضيع حياتها وراء شعارات كما يظن، وكما قال لها مرات ساخرًا:

"الحياة للهنود" "الحفاظ على تراثهم وخصوصيتهم"

كافحت من أجل مبادئ حقيقية من أجل الهنود وغيرهم، راغبة فى تحقيق عدل دنيوى للضعفاء.

لم تشكُ أبدًا حتى بعد أن كشف رسم المخ الذى أجرته منذ عامين إصابتها بالصرع.

كانت النوبات تأتيها غير تقليدية، في صورة دفقات من الغضب.

حمدت الله. لم تكن لتطيق أن يتخشب جسدها أو تصاب بالتشنجات. أما نوبات الغضب، فقد جاءتها فى التوقيت المناسب، لتضفى على شيخوختها بعضًا من نزق الشباب؛ فبعد تجاوزها الستين، صار الغضب ترفًا لم تعد تقوى عليه.

لم تتذكر تفاصيل ما تفعله وما يحدث لها أثناء النوبات. استمعت إلى شهود عيان، كانوا يحكون عن بطلة أسطورية، لا عجوز مريضة بالصرع، مما جعلها تستدعى النوبات أحيانًا عن عمد، ليس عليها سوى التوقف عن أخذ الحبوب، كلما احتاجت إلى مواجهة جريئة أو التعبير عن رفض. حينها يخرج منها الغضب تلقائيًا، جامحًا، مبدعًا.

استغنت عن الحبوب عندما تظاهرت من أجل الهنود الصيف الماضى، وقدمت عريضة احتجاج إلى عضو مجلس الشيوخ، ثم جذبته من رابطة عنقه.

وأخرجت لبوش لسانها بعد انضمام رمزى إلى القوات الأمريكية فى العراق، وهى تلوح باللافتات أمام البيت الأبيض، عبر شاشة السى إن إن.

"لقد ضللت ابنى، لماذا لم تبعث ابنتيك للحرب المقدسة؟"

امتزج غضبها بمرارة شديدة.

كانت مستعدة أن تتحمل أكثر، وأن تصمد أكثر وأكثر.

لم تتوقع أن تأتيها الهزيمة من الداخل، أن يكفر ابنها بقضاياها، ويصارحها "لا فائدة".حاولت إفهامه: "إنه وطنهم ولن يتركوه".

رد مثل مسحور:

"وأمريكا وطني... إنها حرب على الإرهاب، وأنا مجرد جندى مخلص بين آلاف الجنود الأمريكيين".

قبلها، وقال:

"سأعود منتصرًا"

لم يتوقع أن تأكل الحرب لحمه وعظمه وتحوله إلى مسخ.

تنهدت جيرالدين، ولكن ما الذى حدث لها هذه المرة، حاولت استعادة تفاصيل نوبتها الأخيرة.

فى البداية شعرت بفلاشات ضوئية تغشى بصرها. عرفت أنها مقدمة على نوبة صرع، فتحت حقيبتها، وفتشت عن الحبوب، أرادت الخروج من المكان والاختفاء، كى لا يراها نورى بهذه الحالة، كانت غاضبة منه وتحمله مسئولية ألمها ووحدتها، ولكن التوقيت غير مناسب، لتعلن ذلك. حاولت الابتسام كى تخفى أفكارها ومشاعرها، ولكنها انهارت فى النهاية والتفتت إليه:

"كاذب"

ارتطمت يدها بشيء طرى، بعدها اختفى العالم.

أفاقت وسألته "ولكن..."

قاطعتها جيسيكا بدخولها:

"لقد انتهت العملية".

سبقهما نورى إلى غرفة الإفاقة.

اتكأت جيرالدين على جيسيكا، وسألتها:

"أخبرينى أنت ماذا حدث؟"

احتضنتها الفتاة ولم ترد.

الفصل السادس

(١)

ضبط شوكت نفسه يفكر فى مسرحية صادق. كانت الشخصيات تتجول فـى عقله بلا مصير محدد، وتحثه أن يتعرف عليها أكثر.

عاد إلى الشقة المفروشة ذلك المساء لمتابعة الأحداث.

وجد بطل المسرحية (س) منكبًا على كتابة منشورات أوصاه بها الشيخ.

كان يتوقف كثيرًا ويستعيد التكليف، الشيخ يقترب منه، يربت علـى كتفيـه، ويبتسم ابتسامة وضاءة.

"نعم أنت.. أنت، لا أحد غيرك يصلح للمهمة".

هل هو اختبار، أم شهادة على حسن إيمانه وطاعته لله ورسـوله وتطبيقـه لأحكام الشريعة. شعر بقلق، ولكنه قلق لذيذ، كأنه واقف على أبواب الجنة.

لقد استعد طوال عمره لهذه اللحظة خاصم المؤسسات الحكومية "الكـافرة"، ورفض أن يأكل من مال أبيه، الذى يبعثه إليه غرة كل شهر؛ لأنه مال وظيفته فى المجلس المحلى.

لقد أخبره الصيف الماضى، أن خدمته للحكومة كفر ونصحه ببيـع الكتـب الدينية، بدلاً من الوظيفة ولا يهم إن صار كسبه أقل لأن الحلال مبارك.

لم يستمع إليه صفعه "حسبى الله ونعم الوكيل، مالى حرام يا ابن..."

لم يقطع عنه الشهرية رغم ذلك، ورغم أن (س) كان يعيدها إليه كل مرة.

ما حاجته إليها أو إلى أى شىء آخر. كان سعيدًا بحياته الحالية النقيـة، ولا يريد أن يلوثها شىء.

استمر فى كتابة المنشور وقد غمره حبور وسكينة. لقد ترك له الشيخ مطلق الحرية فى صياغة أفكار المنشور، ولم يدخر (س) جهدًا فى التحضير والقراءة.

ألهمه المنشور الذى وزعته جماعة طالبان عــام ١٩٩٦، عقــب إمــساكهم بزمام الأمور فى أفغانستان. نقله حرفيًا، شاعرًا أنه ينقل أفكار عباد صالحين فهموا الدين الحق.

بدأ الاستغفار والثناء على رسول الله، ثم كتب نوصى بالتــالى مــن أجــل صلاح العقيدة.

١ – منع الفتنة وسفور النساء.

٢ – منع حلق اللحى.

٣ – منع تربية الحمام واللعب بالطيور.

٤ – تحريم الموسيقى.

....

.

توقف شوكت عن القراءة. هناك صفحات فارغة، ثم كلمة ببنط كبير

"مفاجأة"

احتبست أنفاسه، وهو يقلب الصفحات...

لا شىء سوى جمل مشطوبة لم يتبين منها سوى كلمتين لصيقتين "موســيقى الناى".

فى الصفحة التالية اتضح الأمر قليلاً، هناك ناى يعزف و(س) منكب علــى كتابة الجمل الخاصة بتحريم الموسيقى.

(س) مسحورًا يترك القلم والأوراق ويستمع إلى الناى، يتــذكر أنــه ملقــب بالصدى... صدى الشيخ، لاستقامته وطاعته لتعليماته.

يرتعد، ويصم أذنيه.

الموسيقى مازالت تعزف. كانت أعماقه تكمل لحن الناى. أحس بالذعر، الموسيقى داخله، إذن الشيطان داخله. بكى فى هيستيرية، واستغفر كثيرًا، وفجأة سكن كل شىء.

جلس شوكت فى اليوم التالى، ساهما فى محله.

كان مأخوذًا بالمسرحية، تتجسد الشخصيات فى مخيلته، فتبدو حقيقية من دم ولحم وحياة.

أحس بوجود صادق، يتابع ما يحدث فى فخر، يشير إليه من مكان مجهول. لقد اخترقت شخصياته عقل إنسان، رغم أنه فقد الإيمان بها فى أيامه الأخيرة.

أحيانًا كان يتخيله ثائرًا، عابسًا، مهددًا.

"اترك أوراقى وإلا....."

وهل يستطيع؟ لقد حاول شوكت نسيان أمر المسرحية، ولكن الكلمات كانت تلف روحه بخيوط خفية وتتسلل إلى أفكاره وتأخذه من حياته. لم يعد يحلق لحيته أو يهتم بهندامه.

كانت الكلمات تسحب منه النور.

ومع ذلك واصل القراءة، مفتشًا عن نقطة ضوء.

هل كان يريد إنقاذ النص أم إنقاذ نفسه؟

لم يأبه شوكت بالزبائن. ولم يتحدث إلى أحد فى منتصف النهار. دخلت عليه امرأة تضع خصلات شعر ذهبية، وتخفى تجاعيدها بمكياج متقن، وترتدى ألوانًا زاهية.

"ألا تذكرنى؟"

نظر إليها ذاهلاً.

قالت "التقينا بعرس منذ شهور".

تحرك فى عقله طيف اختفى سريعًا.

ضحكت "أنا قارئة الشفاه...... ألا تذكرنى"

***

استقبلت قارئة الشفاه ذلك الصباح، بمشاعر مختلفة. اليـوم عيـد ميلادهـا الستين. توقفت أمام المرآة،، أزاحت خصلة فضية سقطت علـى جبهتهـا. كانـت حياتها تمر سريعًا أمامها، مليئة بالمغامرات والتجارب الغامضة، وبشر يصافحون الحياة فى حذر، أو يصفعونها إذا اقتضى الأمر.

كانت قراءة الشفاه عملها الذى تجيده بخمس لغات. لم يكن لها اسم محـدد. البعض يناديها بـ "دى"، ويكملون الاسم وفق هواهم، فهـى ديانـا، دليلـة، دلال، دوريس، دورثى، دينا.

لم تعد تذكر اسمها الحقيقى، توزعت حياتها فى بلدان كثيرة.

لم تتزوج، وليس لديها أبناء. لا يؤنسها سوى ذكرى حب قديمـة، عاشـت فصوله فوق صخرة قريبة من الشاطئ. لا يهم تحديد المكان أكثر؛ لأنها اصطحبت الصخرة والشاطئ معها فى كل مكان.

كانت خبيرة فى مجالها، مشهودًا لها بالكفاءة، وهذا جعلها تعيش أحيانًا فوق براكين ومخاطر.

ذات مرة عصبوا عينيها بشريطة سوداء، ثم أقلعت بها طائرة خاصة إلى مكـان مجهول. مر وقت طويل قبل أن يسمحوا لها بالرؤية. وجدت نفسها فى ممر معتم.

تنقلت من ممر إلى آخر، وصلت إلى باب منخفض، دخلته وحيدة إلى غرفة ضيقة.

استقبلها أحد الملثمين وأجلسها أمام شاشة كبيرة، وطلب منها بإنجليزية (ركيكة) التركيز، وقراءة شفاه رجل ضخم تحرك فوق الشاشة.

كان الرجل يملأ الشاشة ويصرخ. شعرت بالخوف، ولم تتمكن من تفسير أى كلمة. طلبت إعادة الشريط مرات. ردت إليها ذاكرتها، فجأة بعد أن ضرب الملثم منضدة قريبة بقبضته. كان البدين يتحرك فوق الشاشة كالمجنون، ويقول:

"سأسحقه.... لا بد أن أسحقه...."

كانت تحب مهنتها بشدة، تلك المرة شعرت بالخوف وفكرت فى التقاعد، تراجعت عن قرارها، وأرجأته حتى بلوغها الستين.

اقتربت قارئة الشفاه أكثر من المرآة. شاهدت امرأة تفوقها فى العمر. لقد شاخت من الخارج، أما الداخل فمازال على نزقه وطفولته.

فكرت "هل آن الأوان؟"

تذكرت قرارها المسبق بالتقاعد عند الستين، بدت لها الآن الفكرة مثيرة.

أن تغدو حرة، وتكتشف نفسها من جديد، فتشت فى أحلامها القديمة. كانت تريد أن تغدو كاتبة، هل جاء الوقت لتكتب الرواية التى تمنتها؟ بدا الخاطر الأخير كمزحة باهتة، ولكنه صار أقوى وأبهج مع تقدم ساعات النهار.

تمنت فى طفولتها أن تغدو روائية شهيرة بعد أن عايشت قصة نجاح فرنسواز ساجان المذهل.

ولكن هل تكتب فى الستين... أيمكن هذا؟

طالعها من خلال المرآة لوحة ديجاس امرأة ترقص على المسرح، اشـــترتها من أحد المزادات الصيف الماضى.

كانت مجرد بداية، عشقت بعدها دنيا الألوان.

تأملتها، وأحست بالإلهام.

"سأكتب رواية".

عاهدت نفسها أن تقاوم وتحلم مهما طال العمر.

بدأت الجمل تتدفق داخلها، فى انتظار الشخصيات والأحداث. وفجأة شعرت أنها ترى ما لا يراه الآخرين، وإنها كاتمة أسرار وحكايات، وقادرة علـــى تقليـــب الأحجار وإخراج الأفاعى السامة والكنوز من تحتها.

كانت دائمًا ما تكتب القصاصات والتعليقات المدهشة، الآن هو وقت الهمـــة وجمع الخواطر الشاردة فى عمل كبير.

فتشت كل شيء، الأرفف، جيوب المعاطف والبنطلونات، الأدراج، وجـــدت كارت شوكت داخل حقيبة ذهبية.

شوكت عماشة.

تاجر أنتيكات.

قرأت الكلمات التى دونتها فى الخلفية على مهل.

- شخصية غامضة التقيت بها فى العرس الذى حضرته بتاريخ...

لم تتذكر ملامح الرجل، ولكنها تذكرت الواقعة والشخصية. التقت بـــه منـــذ شهور فى عُرس فتاة شرم الشيخ. كان مرتبكًا، ويعانى أزمة، وينتظـــر صـــديقته الصينية التى لم تأتِ قط.

وبدا لها شخصية روائية مدهشة. رجل وحيد، معلق بقصة حـب، وتتـوالى عليه الأحزان.

يجب أن تتعرف عليه أكثر.

قررت زيارته.

(٢)

كانت وانغ تتلذذ بنظرات هونج المندهشة

"حقًا؟"... تشانج فعل ذلك أو قال ذلك! هل تتكلم هذه المرأة عنا؟!

تذكرت مناقشة حادة معه، أعلن فى نهايتها.

"أمى لن تفهمينى، مهما حاولت"

كان يعتبرها حارسة للتعاليم القديمة، مهما حاولت إظهار مرونة قال لها مرات "ما تؤمنين به مكانه الكتب الأثرية ومتاحف التاريخ، ولا يصلح لهذا العصر.. أعطونا فقط الفرصة كى نكتب التعاليم التى نؤمن بها".

واصلت وانغ الحكى، أغمضت عينيها لتلملم التفاصيل الصغيرة، وتذكرت ما حدث قبل ذهابهم إلى ميدان تيان آن مين للمطالبة بالديمقراطية.

حكى لهم تشانج قصة.

"تعرفون أنى أختلف مع الحكيم كنفوشيوس كثيرًا، وأومن أن لكل عصر حكماءه"

سكت لحظات، ثم قال: "القصة التى سأسردها عليكم لا تخص زمانه، بل كل زمان".

ازداد صوته عمقًا

"التقى كنفوشيوس ذات يوم بامرأة أكل الذئب زوجها، ولكنها لم تبرح مكانها... لم تكن خائفة من الذئب أو المكان" كان تشانج يتطلع أثناء الحكى إلى الصفوف الخلفية، ويقول:

"سأل كنفوشيوس المرأة فى توسل كالمهدد أن تزول حكمته ما سر بقائك فى هذا المكان الخطر؟ ألا تخشين على نفسك من الذئب؟".

استفاض تشانج فى وصف المرأة. شعرت وانغ بالارتباك كأنه يغازلها.

لم يجعل امرأة الحكاية مشعثة، مدممة القدمين، ممزقة الثياب، ملطخة بالطين والدموع. صورها حرة، طليقة، خطواتها رقصات، وصوتها نغمات، وثوبها مغزول من ألوان الطيف.

أما زوجها فذو قضية وبلا أوصاف محددة، مناضل وأكثر حكمة من كنفوشيوس. هربا معًا من جبروت ديكتاتور.

كان يضمها كل ليلة ويقبلها قبلة الحياة والحب، تنساب كلماته داخلها.

"سأجمع كل المظلومين يا زوجتى... نحن كثر... أكثر مما نتصور، ولكننا خائفون... أو صامتون... أو هاربون".

ولكن كيف وصلت هونج ووانغ إلى المصالحة؟

حدث هذا ذات يوم. اقتربت منها وانغ بعد أن أنهت وصلتها فى العزف.

جلسا معًا. تناولا الشاى، وتراشقا بالألفاظ المغلفة بأكثر من معنى؛ مما جعل هونج تظن فى أحيان كثيرة، أنها ليست مصالحة، ولكنه فضول كلتيهما للتعرف على عدوة قديمة.

تبادلا الابتسامات والنظرات الغامضة والمصافحات التى امتزجت فيها برودة الكراهية، وحرارة ذكرى حبيب مشترك.

واقتنصت وانغ الفرصة، وسردت وقائع وتفاصيل أخفاها تشانج عن أمه، ربما لتقول لها: كنت أنا الأقرب والأكثر فهمًا له. أنت أنجبته، ولكنى عرفته. أطلعنى على خفايا روحه وعقله وحلمنا معًا بعالم جديد.

أخفت عن هونج المشاجرات والخلافات والغيرة والدموع. لا تريد لغريمتها الفوز بأية نقطة.

لقد كانت هونج قاسية معها فى الماضى. ربما تسامحها، ولكنها لن تنسى ما فعلته أبدًا.

قاطعتها هونج: "ماذا حدث فى حكاية المرأة والذئب؟ لماذا لم تترك المكان الخطر؟"

ضحكت وانغ: "آه... لا أدرى... لحظة سأحاول التذكر... لم يكن بالمكان، حكومة ظالمة على ما أظن، والآن هل ترينها متهورة أم حكيمة؟"

(٣)

كتب نورى لهونج عبر البريد الإليكترونى مازلت أبحث عن ابنى. وجـــدت جسده، ولكنى لم أجده. شرح لى طبيب بالمستشفى العسكرى بالأمس ما فعلوه بـــه. صنعوا له جفونا، وغلفوا الوجه بجلد الساقين. أما الشفاة فصنعوها من جلد البطن. استخدموا عضلات الظهر لتثبيت الرأس، وزرعوا له ثلاثة أصابع. تركته يتحـــدث عن التفاصيل وكنت أفكر عمن يتكلم، هل يقصد ابنى، أم يحـــدثنى عـــن مخلـــوق خيالى ابتكرته المشارط؟ أحاول العثور على رمزى كل يوم. أذهب إلـــى غرفتـــه، وأنظر إليه فأرى مسخًا مشوهًا، لا يرانى ولا يرى شيئًا، كأنه مازال مسجونًا داخل لحظة الانفجار التى أطاحت بملامحه.

لقد نظر رمزى فى المرآة اليوم، وسأل من هذا؟.. ما هذا؟ قالهـــا بـــصوت خافت، فزع، مكسور، ثم صم أذنيه وصاح: "ما هذا الانفجار، ما الـــذى يحـــدث، لنبتعد؟"

كتبت هونج ردًا سريعًا "مازالت لديك فرصة التعرف على رمزى، لو كنت مكانك لاحتضنته قبل أن يفوت الأوان".

لم تكن هونج تدرى لماذا تكتب لنورى باستفاضـــة وتكتفـــى مـــع شـــوكت بمكالمات خاطفة قصيرة. إنها أعماقها التى لا تفهمها.

(٤)

أغلق شوكت المحمول. كانت هونج هى المتحدثة، لقد اختلفت نبراتها، صارت جافة وجارحة. لم يعد يؤنسه سوى مسرحية صادق. كان يفتش بين سطورها عن سبب انتحاره.

زارته أفكار الموت كثيرًا مؤخرًا. بدأ يشعر أن الموت أقرب مما يظن، وأنه غامض ومثير، بل لا يخلو من المتع.

ظهرت فتاة محجبة على مسرح الأحداث، مثل مفاجأة حلوة لم يمهد لها صادق. بدأت تعزف الناى، و(س) يتلصص إليها من بعيد، ويشفق عليها، فتاة مؤمنة ضلت الطريق فى أروقة الموسيقى.

تستمر البنت فى العزف، فتخترق النغمات (س)، وتجتذبه إلى حيث تقف البنت. يتذكر ما قاله الشيخ... الهدوء أثناء الدعوة، وبإذن الله تكون الاستجابة. تلمحه البنت فتتوقف عن العزف.

يتنحنح (س) "أليس الأفضل..." يغرق فى خجل ورهبة، ولكنها ابتسمت ابتسامة كالسكر.

"أنا أعرفك، أنت معى فى السكشن... أهلاً وسهلاً" ماذا كنت تقول؟"

اقترب (س) وحدق مبهوتًا فى عينيها "كنت أقول..." سكت فبادرته قائلة "نحن جيران أيضًا"

أشار (س) إلى الناى، ولكن الكلمات لم تخرج من حلقه "كنت أقول..."

ضحكت "آه أحب الموسيقى منذ طفولتى، وحين أعزفها أشعر كأننى أبتهل إلى الله".

فكر (س) "لا حول ولا قوة إلا بالله".

تذكر سطوة النغمات "معذورة، المسألة ليست هينة وتحتاج إلى جهاد".

عزفت بضع نغمات، ثم قالت:

"كيف تخرج النغمات العذبة من الناى الصلب، إنها قدرة الله وإبداعه في خلق الإنسان"

فكر (س) "الشيطان يلبسها ويلهمها الميل للمجادلة، ولكن الشيخ يقول الموسيقى حرام، وطالبان حرموها، إذن هى حرام والجدال حرام.

سألته: "هل استمعت إلى شوبان وباخ وعمر خيرت؟" يمكنني أن أعيرك بعض الشرائط،" فتحت حقيبتها.

توقف شوكت عن القراءة، هناك سؤال كتبه صادق ببنط كبير (هل يأخذ س الشرائط أم لا يأخذها).

أراده شوكت أن يأخذها، كان بحاجة إلى الموسيقى فى هذه اللحظة، وخاصة بعد ما حدث له اليوم: التقى عند الظهيرة بالمرأة العجيبة التى تعمل قارئة للشفاه، واحتمل نظراتها المتشككة، وأسئلتها التى تشبه سنارات تتصيد الكلمات واللفتات والهواجس.

أفلت منها بصعوبة: "آسف عندى ميعاد مهم"

اصطحب ابنه يوسف إلى جلسة التخاطب حوالى الثانية عصرًا.

لم ينصرف مباشرة كعادته بعد انتهاء الجلسة، وقرر مواجهة الطبيبة.

"لم يحدث تحسن يذكر فى حالته منذ فترة"

قالت دون أن تلتفت إليه:

"اختبارات الذكاء ليست فى صالحه".

استفهم، ولكنها كانت قد بدأت جلسة مع طفل آخر.

صرخ: "ابنى ذكى، إنه فيلسوف، ألا ترين؟ لقد قرأت عن متوحدين صاروا عظماء".

قاطعته الطبيبة فى فجاجة: "ابنك لديه تخلف عقلى طفيف".

شعر بدوار، اجتذبه الممرض خارج العيادة.

كان يوسف يحدق فى الفراغ، ويضحك.

احتضنه شوكت: "لا يفهمونك لأنهم أغبياء.. هذه الدنيا غبية".

(٥)

كررت قارئة الشفاه زيارتها لشوكت بعد ثلاثة أيام. وجدها أمامـه متفجـرة بالحياة والهوس، تتدلى منها خصلات أكثر بلون الذهب، ووجهها مصبوغ بـألوان جديدة وبراقة. جلست إلى جواره، وبدأت تدوين الكلمـات العالقـة علـى شـفتيه، والتفتيش فى تاريخه الشخصى ومناقشته فيما شعر به ولم يقله.

كان غارقًا فى يأسه هذه المرة.

بادرته مواسية "لا تصدق الاختبارات".

رفع رأسه فقالت "كنت أرسب فى الجبر ولا أفهمه، الاختبـارات فـخ، ولا تعبر عن قيمتنا الحقيقية".

ربتت على كفه "ابنك ذكى، لو اقتنعت بذلك".

شعر شوكت بالحيرة، بالأمس لعب معه الـ Puzzle. كان يوسف يحـاول تركيب صورة فيل، أمسك بالأذن ووضعها فى المكـان الـصحيح. وأشـار إلـى الصورة الناقصة وقال:

"فيل"

هزت قارئة الشفاه خصلاتها الذهبية: "حتى لو لم يقل هذا الكلام، أعنى لـو كان الأمر خيالاً فى خيال."

أمسك شوكت رأسه، شعر أنه غارق فى ظلام، حاول التمييز بـين الحقيقـة والخيال: "أظنه قال ذلك أنا واثق".

دونت قارئة الشفاه بضع جمل، ثم قالت: "لنفترض أنه لم يفعل، وأنه لـيس ذكى كما تتمنى، ألن تحبه؟!"

بوغت شوكت بالسؤال، كانت المسألة عنده لا تتعلق بالحب، ولكن لن يتمكن من حمايته. لا يعرف كيف يفعل. ولد صغير معاق، لن يلتفت الناس إليه يذكرونه.

واسته: "آلاف الأذكياء قذفهم الناس بالحجارة".

شعر شوكت بالضيق، هذه المرأة لا تفهم مشاعر، هكذا النساء.... سكتت قارئة الشفاه، الاسترسال فى حديث كهذا صعب.

كانت بلا أبناء، ولكن ضحكات الأطفال أنارت حياتها دائمًا، ولا يمكنها تصور عذاب طفل صغير مثل يوسف.

اكتفت بما دونته واستأذنته. خطوات والتفتت إلى حيث يجلس شوكت، لم تتمكن من رؤية وجهه ولا عينيه.

التفتت خلفها أكثر من مرة، قبل أن توقف سيارة أجرة.

"مصر الجديدة".

(٦)

جلست قارئة الشفاه تخطط للرواية... لن تكون هناك معجـزات أو مناطيـد طائرة أو ممرات ومغارات سحرية ستكون رواية المغلوبين والضعفاء، هناك أمـل وفرص أخرى لكل منهم.

ولكن أحلامها انهارت فى زيارتها التالية لمحل شوكت، فقد بلغها نبأ غيـر متوقع عن اختفائه منذ ثلاثة أيام.

كانت تنوى أن تجعله شخصيتها الرئيسية، أن تخلق منه قائدًا للمهمشين. لـم تتوقع أن تنهار خططها باختفائه الفجائى. اعتبرتها أنانيـة منـه أن يغيـر الخـط الدرامى لروايتها، ويصيب القارئ بصدمة غير متوقعة ويهرب، لماذا؟ وكيف؟

لم تستطع أن تستشف إجابة. داخل محل شوكت وجدت قصة أخرى. كـان شموئيل جالسًا على أريكة من الأرابيسك، غارقًا فى هلاوسه وجدت نفسها منجذبـة إليه، تدون حكاياته وتضيف إليها ما قرأته فوق شفاه الداخلين عليه. كان العجـوز مرتبكًا، لا يدرى أين هو، ولا كيف جاء إلى ذلك المكان.

بدأ الأمر كحلم من أحلامه التى كانت تسليه أثناء جلوسه وحيدًا فى غرفتـه المعتمة، تسلل إليه ثلاثة أشباح، رجلان وامرأة. تكلمت المرأة بصوت مثل طنـين نحل كلامًا لم يفهمه. كان صوتها يعلو وينخفض ويختفى، وهو يلاحق الكلمات.

قالت: "أنا جدة يوسف ابن شوكت".

رجته أن يجلس فى المحل الفترة القادمة، لأنه الآن رجلهم.

لم تنتظر رده. حمله رجلان إلى حيث أرادت. غير آبهـة بـسنواته التـى شارفت المائة أو جاوزتها.

وصله خبر اختفاء شوكت متأخرًا، مخترقًا بصعوبة مملكة خياله وأوهامه.

ابتسم لأشباح أحاطت به "حقًا"

استبعد فكرة موته، دارت الأشباح حوله، تسخر من الموت وتناديه وتشكك فى وجوده. لم يجادل أو يعارض،، معهم حق، لقد أخذ الموت الجميع وتركه.

كان يتمنى فى قرارة نفسه أن يهبه الله الخلود.

"لو أردت لى الخلود يا رب... ليكن، فهى مشيئتك التى لا ترد، ولكن هب لى أيضًا الشباب والشغف بالدنيا وراشيل".

دخل صبى المحل توقف أمام شموئيل، كان بالنسبة إليه خارج الزمن. اقترب منه ليتأكد أنه يتنفس، ولم يخطر بباله أنه يتذكر امرأة أحبها، فلا وجود للحب والكراهية والصراعات لرجل فى مثل عمره، ليس أمامه وقت ولا معنى أن يخطو فى أى اتجاه.

دونت قارئة الشفاه ما رأته وما حكاه العجوز عن راشيل.

رآها أول مرة داخل قصر ثرى يهودى. اصطحبته جدته إلى هناك طمعًا فى العطايا يوم العيد.

كانت بهجة متحركة وحياة. أشعرته بضعفه وقلة حيلته. بكى يومان متتاليان؛ لأن حبيبته بعيدة ومستحيلة.

لم ينقذه سوى خياله. أخذه فى جولة بين حكايات العشق، الكل سواء فى مملكة الحب، لا فرق بين أمير أو ولد فقير.

سكنت راشيل روحه وصارت موضوعه الفنى، فهى فوق مزهرية تطارد فراشة، أو ترفرف كعصفور على علبة من الصدف، أو تتمايل كزهرية برية من العاج.

لم يشعر بالسنوات وهى تمر، حتى حدثت المعجزة، فذات يوم توقفت سيارة فخمة أمام المحل، خرجت منها راشيل، وتوجهت إلى حيث يقف.

كانت تبحث عن هدية تصلح لصديقة أجنبية.

وقبل أن ينتبه، فوجئت بصورتها تطل من كل ركن.

شهقت.

"إنه حلم".

التفت إليها مشدوهًا.

"أنت الحلم".

توطدت العلاقة بينهما، زارته مرات فى المحل.

تجولا فى حارة اليهود والحارات المجاورة.

كان فى البداية خجلاً، ولكن خياله أسعفه وأحاطه بأطباق بلورية وأزهار طافية وفراشات راقصة. لم تدم سعادته خطفها منه الحزن. كان كل شىء يحزنها، المتسولون والجياع والأيام التى قضتها خلف أسوار قصرها متكئة على وسائد قرمزية تمضغ الجاتوه.

غلبتها الأحزان وماتت بعد قيام إسرائيل بشهور.

دفنت فى مصر، لتربطه بخيوط خفية وأبدية إلى أرضها.

كان جيرانه مهووسين بالهجرة إلى إسرائيل، ويحاولون إقناعه بسحر أرض الميعاد، فيشعر براشيل تهمس له.

"لا تصدقهم، الوطن هى الأرض التى تجد فيها الحب".

حاول أن يصف لهم مصر كما يشعر بها.

قال له أحد الحاخامات: "أنت تحب".

سرح بعينين غائمتين.

قال الحاخام:

"لا تخبر أحد الحب غير متاح للجميع"

ربت على كتفه: "اتبع قلبك"

وكان قلبه فى مصر.

أضاءت قارئة الشفاه الأباجورة، غمر الضوء المكتب والأوراق البيضاء. لقد أجرت تحقيقًا صغيرًا عن اختفاء شوكت في الأيام السابقة، ولكن كيف تكتبه؟

شعرت بالإثارة، فلغز صغير سيضفى على الأحداث تشويقًا ورواجًا. ليس فى نيتها كتابة عمل بوليسى، ولكن لغز واحد لن يضر أو يخفى الشخصية الإنسانية لشوكت.

تذكرت شيئًا، قفزت من فوق المقعد، واتجهت إلى الدولاب.

أخرجت ورقتين من بين رزمة أوراق.

فتحتهما فى حرص كما تفتح الوثائق الثمينة. وجدتهما فوق منضدة صدفية فى محل شوكت. لم يكن الحصول عليهما سهلاً، مع وجود عجوز كشموئيل يبتسم كأنه يرى ويسمع ويتغاضى.

الورقة الأولى كانت أكثر امتلاء، الكلمات مكتوبة بثبات ووضوح، قرأت:

"استمع (س) إلى الموسيقى سرًا، كان يشعر بروحه تتجرف فى شلال من البهجة، وأنه يقفز ويحلق ويغامر، وأن قلبه أوسع مما ظن وخياله سابح فى الألوان.

أفاق على كابوس، فقد اجتمع بهم شيخ الجماعة الخميس الماضى بعد صلاة العشاء. قطب حاجبين كثيفين ونتف شعيرات من لحيته، ثم مال عليهم وقال بنبرات عميقة: "ستكتب فى ميزان حسناتكم، إفساد حفل الموسيقى الذى تقرر إقامته فى الكلية، نهاية هذا الشهر، ضرورة من أجل صلاح الدين".

برقت عينا (س) فى فزع، فعاد الشيخ يقول : "لا تغرنكم اللافتـات البراقـة المعلقة فى كل مكان، التى تعلن أنه من أجل مستشفى سرطان الأطفال، لا خير فى عمل تشجعه الدولة".

كان (س) ينكمش ويغوص فى جلبابه، فكر أن يجادله، ولكنه تراجع.

قال الشيخ: "حفلة مزيكا!! شياطين، ماذا تتوقع مـن شـياطين، أن يـصلوا ويسبحوا أم المسخرة والترالالى."

التفت (س) حوله كأنما يبحث عن مخرج، فجأه صوت الـشيخ: "يروجـون للبدع التى تأباها الفطرة السليمة، ويلبسون الحق بالباطل، ويدعون صـراحة إلـى جهنم، أقولها عاشرًا ومليون الموسيقى حرام حرام... حرام".

فتحت الورقة الثانية، طالعتها بقع حبر متناثرة هنا وهناك، الحروف تميـل وتعلو وتنخفض كأن صاحبها ينتزعها بصعوبة من أعماقه.

"أنا الكاتب، أعترف بعجزى عن إتمام المسرحية، حتى لـو تـصدى (س) للأمر ونبه الفتاة المحجبة وهى تعطيه دعوة للحفل الموسيقى؛ فهل يعنى هذا الأمر انتصار الموسيقى و(س)؛ وإننى ككاتب قد انتصرت؟

انتصار الموسيقى لا يعنى هزيمة الظلم والجهل والتوحش.

لا أمل فى شيء ولا حل سوى الموت"

وضع خطين تحت الجملة الأخيرة.

عادت قارئة الشفاه إلى مكتبها، تصفحت بعض الجرائــد، أعــادت قــراءة الإعلان الذى نشرته حماة شوكت، تناشده فيه أن يعود من أجل يوسف.

وفكرت فى سر الورقتين.

الفصل السابع

(١)

ابتسم رمزى اليوم أمام الكاميرات، فور خروجه من المستشفى العسكرى.

سألت مذيعة الإيه بى سى جيسيكا:

"هل تغير رمزى بالنسبة إليك؟"

احتضنته.

"لم يتغير، قلب رقيق وروح دافئة".

"إذن هو مازال أمير أحلامك".

تنغمس جيسيكا ورمزى فى قبلة طويلة.

تنهى المذيعة اللقاء وتواجه الكاميرا.

"كنا نتابع قصة حب أسطورية، ولدت على أرض أمريكا".

مراسلى الصحف يتهافتون على تصريحات الحبيبين.

- "أمازلت تحبينه؟"
- "أكثر من قبل".
- "أمازالت حبيبتك؟"
- "وطفلتى أيضًا".
- "هل خسرت بذهابك للعراق؟"

- "فقدت الجزء الغبى فىَّ"
- "متى ستتزوجان؟"
- الخميس القادم.

ركبوا شاحنة أحد معجبى جيسيكا ورمزى.

توجهوا إلى بلدة صغيرة، فى ولاية لوزيانا، بعيدة عن مخاطر الأعاصير. كان سائق الشاحنة يثرثر طوال الطريق، ويتوقف كثيرًا، لالتقاط صورة أو الإدلاء بتصريح عن العاشقين، لجيش غامض من مطاردى الشاحنة.

كانت هيلدا جالسة فى المقعد الخلفى، غارقة فى أفكار سوداوية عن نيوأورليانز، الملطخة بوحل العنصرية ومآسى إعصار كاترينا.

أعادها الإعصار إلى قضية النضال من أجل الزنوج، كان تباطؤ السلطات فى عمليات إنقاذ السود يحزنها ويشعرها أنها عادت إلى نقطة الصفر. ماذا لو لم تقرر فى اللحظات الأخيرة مرافقة ابنتها إلى تكساس. كان يمكن أن تتحول إلى امرأة منكوبة أو ميتة.

وصلوا أخيرًا، نزلوا فى ضيافة هيلدا فى بيت ورثته عن عمة لها، وتحولت البلدة الهادئة فى لحظات إلى معسكر للصحفيين وكاميرات التلفزيون.

أجرى سائق الشاحنة الخمسينى، ذو اللحية الحمراء، عدة أحاديث صحفية، أكد فيها أن الحب مشتعل بين رمزى وجيسيكا كالبركان، مستعرضًا تفاصيل الهمسات واللمسات التى رصدها بنفسه.

تابعه نورى قليلاً ثم انصرف. كان قلقًا من هذا الضجيج، خاصة بعد أن حددت جيسيكا موعد الزفاف فى أحد اللقاءات الصحفية، وتناقلته وكالات الأنباء، مع ملخص عن علاقة الجندى المشوه وحبيبته القديسة.

لم يكن الانفراد بجيسيكا سهلاً، ولكنه حين تمكن من ذلك أخيرًا ردت هواجسه بقولها "بالطبع، أحبه أكثر من قبل".

أحس فى نبرتها ما يشبه التخبط والتوهان.

كان الكلام مع جيرالدين مثل القفز وسط شلالات هادرة.

أغلقت الموضوع قبل فتحه وعنفته.

"هل عدت لتقطع خيوط الأمل التى تربط ابنك بالعالم؟"

طرح نورى مخاوفه فى وجهها، قد يكون أمل كاذب، ويقضى على رمزى بدلاً من إنقاذه.

"إنهما يمثلان باقتدار دور الأسطورة أمام الجماهير، ولكن هل ما بينهما حقيقى، لا أريد لقصتنا أن تتكرر" .

اخترقته نظراتها القاسية.

"أمل كاذب، أفضل من الموت".

لم يصدق نورى نفسه، جيرالدين تتشبث بالأوهام، وترى فيها مخرجًا ومنقذًا، وهو يحاول اقناعها بوقائعها بوقائع وبراهين مستندة إلى الواقع.

لقد تغير فى الشهور القليلة الماضية.

كانت حياته وهمًا كبيرًا، ولكن مواجهة نفسه بذلك، سبب له ألمًا أكبر.

لا يريد لابنه أن يفقد بوصلة الحقيقة مثله، لن يحتمل لحظات صدق قاسية تنبت داخله دون ميعاد.

صمم.

"لا بد أن يأخذ وقتًا كافيًا قبل قرار الزواج" تركته جيرالدين دون كلمة واختفت خلف أحد الأبواب.

لم يدر نورى ماذا يفعل؛ فجيسيكا منشغلة بالأضواء وتفاصيل العرس، وجيرالدين لا تفاهم معها، ورمزى يسير منومًا نحو مصير مجهول.

فكر: "لا مفر من مفاتحة هيلدا".

وجدها فى الحديقة وسط حشد من أهل البلدة.

"هيلدا".

"نورى ليس الآن".

كانت منشغلة بمهمة أكثر قدسية، من أية تفاهات أخرى.

انهمكت فى جمع توقيعات ضيوفها على عريضة الاحتجاج، التى كتبتها، فور أن سمعت عن نية إعمار نيوأورليانز بعد الإعصار، وإسقاط المنطقة المنخفضة التى يقطنها السود من الحسابات.

وقفت متكئة إلى عكازها تحفزهم على التوقيع

"نيو أورليانز هى السود، بدونهم لن تكون نيو أورليانز"

***

لم يكن رمزى على علم بقلق أبيه ومحاولاته المستميته لانقاذه مـن زيجـة متعجلة.

كان منساقًا وراء ترتيبات جيسيكا الخاصة بالعرس، دون أن يسأل نفسه أية أسئلة، أو يحاول تفسير التبلد الذى يعتريه كلما فكر فيها أو لمحها، كـان وجودهـا بديلاً للوحدة والفراغ، أما الحب فلم يعد يستسيغ كلماته أو طقوسه. كـان التهافـت الإعلامى على قصتهما أكبر من أن يتصدى له بمفرده. كيـف يـصدم الجمـاهير ويعلن أنه لم يعد قادرًا على الحب، وأن قلبه تحول إلى شظايا فى العـراق، ولـن يعود كما كان؟!

كان تجاوبه مع جيسيكا أمام الكاميرات، إعادة لتمثيل مشاهد سينمائية قديمة وحديثة عالقة فى ذاكرته المشوشة.

أما فى لحظات انفرادهما، كان يغرق فى صمته وخيالاته المجنونة، وكانـت تنهمك فى وضع تفاصيل الزواج، وترتيب مواعيد المقابلات الصحفية والتلفزيونية التالية.

لقد تحولت فى يوم وليلة إلى فتاة أمريكا وبطلتها الأسطورية. لم تسأل نفسها ما الذى يربطها برمزى الآن. الأسئلة لن تفيد؛ فهـى تتـزوج بمباركـة الـشعب الأمريكي، مثل أميرة فى قصص ألف ليلة وليلة، ورمزى هو الرجل الـذى تمنتـه دائمًا؛ فهل تختلف رغباتها فى أشهر قليلة؟!

أقنعت نفسها أنه لم يبتعد ولم يتغير، وأن الحب بينهما قوى. قاومت أية فكرة مخالفة لذلك.

حتى بعد الحديث الذى دار بينهما قبل الزفاف بيومين.

كان رمزى جالسًا فى الشرفة يحدق فى لا شيء. اقتربـت منـه، طوقتـه بذراعيها، وسألته:

"فيم تفكر؟"

صدمه السؤال فى البداية ولم يرد. قال كلامها غير مفهـوم تخللتـه كلمـة غريبة.

سألته فأجاب :

"تقصدين رابحة، إنه اسم، مجرد اسم عربى".

"اسم رجل أم حبيبة عراقية".

لوى فكه شبه ضحكة.

"لا لا طفلة صغيرة".

كان فى منطقة الأسد فى العراق، لسبب لم يعد يذكره. اقتربت منه رابحـة، وسألته بإنجليزية ركيكة.

"ألك وطن؟"

وقبل أن يجيب، انهالت الطلقات عليها، وتحولت فى لحظات إلى جسد هامد ملطخ بالدماء.

التفت ليجد زميله في الفرقة، مصوبًا سلاحه نحو الفتاة. لم يكتف بما فعـل، اقترب من الجثة، وأطلق طلقتين، محولاً فزع عينيها إلى بؤرتين سوداوين.

برر ما فعله، بأنه الواجب.

"لا تنخدع بطفولتها، الأطفال هنا ليسوا أطفالاً، ولكن طعمًا لاستدراجنا إلـى فخ الموت، هذه قواعد الحرب".

ــلم يحتمل رمزى ما حدث وأصيب بهياج شديد، أطلق النار فى كل اتجاه، وحين أفاق، لم يصدق ما فعله، لقد قتل زميل فرقته.

وقف مذهولاً، وخطر له الموت في تلك اللحظة كخلاص.

أعد سلاحه، وكاد يطلق النار على نفسه.

أوقفته جلبة غامضة، تراءت له رابحة تنفض الغبار عنهـا، وتحـدق فيـه بمحجريها القاتمين، لـم يـرد إليها الموت صفاء عينيها، ولم يضف عليها هـالات أو امتيازات. نـادتهم فاصطف خلفها جيش من الموتى والأشباح، أطرقوا جميعًـا. لم يحررهم الموت كما يشاع بين الأحياء، مازالوا يتطلعون إلى الحرية.

ألقى سلاحه، وتراجع عن قراره، فلا فائدة.

قالت له جيسيكا: "لا تخبر أحدًا بهذه القصة، من الممكن أن تحـاكم لقتلـك جندى أمريكى، وتتحول أسطورتنا إلى كابوس".

غـرقت أكثر فى تفاصيل العرس، كـأنها تخاف من مواجهات أخرى معه أو مع نفسها.

(٢)

أضافت قارئة الشفاه ما يلى إلى روايتها، خافية كل التفاصيل عن المصدر، الذى اشترط عدم ظهوره بأى صورة فى الأحداث:

انضم شوكت في يوم اختفائه إلى مظاهرة أمام ضريح سعد زغلول.

كانت أول مرة فى حياته ينضم فيها إلى مظاهرة سياسية.

استعد لهذا الحدث بلافتة كتب عليها بحروف سوداء كبيرة

"لماذا"

ولكن ما حدث بعد ذلك لم يكن فى تصوره. كان لظهور اللافتة أثر السحر على الجميع، فتغير مسار الأحداث بسرعة.

ابتلع المعارضون هتافاتهم حين اكتشفوا اللافتة كأنهم وجدوا الحل أخيرًا، وتراجعت قوات الأمن خطوات بمجرد قراءتها.

انضم كثيرون للمظاهرة مبدلين آراءهم السابقة عن عدم جدوى أى شىء، وتحلقوا حول شوكت مأخوذين باللافتة.

تقدم شوكت ومن خلفه الجموع كأنهم مسحورون. قوات الأمن المركزى جنبًا إلى جنب مع اليساريين والليبراليين والإخوان والمستقلون، وأعضاء كفاية، و٢٠ مارس، ومصريون من أجل التغيير، ومنظمات مناهضة التعذيب، وحقوق الإنسان والمرأة.

وذو التوجهات الخفية التى لم يعلنها أصحابها والمتفرجون الذين كانوا قبل ذلك يتابعون كل شىء فى خوف وريبة ودهشة.

كان شوكت يتقدمهم فى ثبات كأنه يعرف الوجهة الصحيحة.

انضم إليهم آخرون من كل زاوية وشارع وبناية مروا بها.

ارتبكت الحشود وتململوا، حين مر الوقت، ولم يحدث شيء، وسألوه في صوت واحد

"لماذا"

أزعجهم أنه لا يعرف. تكلموا كل يحاول أن يشرح وجهته للآخرين علت الأصوات، حين يئسوا من أى تفاهم تذكروا أنهم مختلفون، وانفرط الجمع تدريجيًا، تاركين شوكت وحده عند المفترق.

ولكنهم لم ينسوا اللافتة. حاول كل منهم الاستحواذ وحده على الكلمة السحرية، مرددًا "لماذا" بطريقته كأنها اكتشافه الخاص.

قالتها قوات الأمن المركزى حين، جعلوا من أجسامهم موانع بشرية طوقت المتظاهرين.

وختم بها المعارضون هتافاتهم المناهضة للنظام.

أما الذين آثروا السلامة طوال حياتهم، وفوجئوا أنهم تورطوا فى مظاهرة، ابتعدوا باقصى سرعة، منزعجين من الهتافات الجريئة، ولكنهم تذكروا اللافتة، وهم عائدون إلى يأسهم وحياتهم الرتيبة ومآسيهم التى لا تعد ولا تتغير.

فرددوا ما فيها فى سرية وخفوت بينهم وبين أنفسهم.

لم يبدُ على شوكت الاهتمام بما حدث. السياسة هكذا، لا ضمانات ولا حماية أو استقرار.

كان من الذين لا يؤمنون بجدوى التظاهر، والتجربة أكدت له قناعاته. لم يحاول تبرير الفشل. لا فائدة، ولا يهمه السبب؛ فهو لا يتطلع إلى دور المنقذ، ولكنه تمنى بعد فترة قصيرة أن يوجد هذا المنقذ، أى منقذ...

انبعثت فجأة شخصياته الكاريكاتورية. تحركت فى رأسه أولاً، ثم انسلت فى جماعات، و فرادى، لتواجهه.

لم تكن لطيفة، ضاحكة، كعهده بها، كأنها تعقد له محاكمة، وتحقق فى سبب إصراره على الوقوف مكانه، بعد أن خذلهم وخذل الجميع.

تهامسوا وتجادلوا، وأشاروا إليه، وفى النهاية صرخوا فى وجهه.

"تحرك"

لم يستطع الحركة، حتى بعد أن هددوه بالسخرية منه حتى الموت.

(٣)

دونت قارئة الشفاه أحداثًا أخرى فى روايتها، مستعينة بالتحقيقات التى أجراها صحفى شاب عن واقعة اختفاء شوكت، كانت بارعة فى سرد الوقائع ورسمت شخصية الصحفى بدقة، رغم أنها لم تلتقى به أبدًا، ولم تفصح عن مصادرها كالعادة، وإن أرجعت الفضل إلى ثرثرة النساء.

كتبت:

انتقل خبر اختفاء شوكت من باب الاجتماعيات إلى صفحة الحوادث، بواسطة صحفي عمل حديثًا فى الجريدة القومية الكبيرة.

كان وسيمًا، رشيقًا مترفعًا. لم يتوقع له أحد مستقبلاً، ولكنه أراد أن ينحت واحدًا. ولا يهم ما اختلقوه عن غروره وفراغة عقله وفظاظته ولثغته وسلسلته الذهبية وساعته ونظارته وتليفونه المحمول وعرجه الخفيف، ونظراته الضاربة إلى أعلى كأنه هابط من السماء. كانت الهمسات تصله، فيبتسم أحيانًا ويدير ظهره كثيرًا ليس غضبًا، ولكن رغبة فى أن يخفى أفكاره وخططه التى تتجاوز كل حد.

وكان شوكت أحد مشاريعه السرية التى عمل بجد وصبر؛ فمنذ رأى صورته فى باب الاجتماعيات، صمم أن ينتقل بهذا الخبر العارض إلى مستوى إنسانى عميق يثير اهتمام الناس ودهشتهم.

التقى بكل من عرف شوكت، مستفسرًا عن أدق تفاصيل حياته، وحين اكتملت التحقيقات وأعدت للنشر، اختار لها مانشتات ملتهبة مثل :

"ما وراء اختفاء أب مصرى؟"

"أم وداد تفتح قلبها وتتكلم عن شوكت".

"يوسف طفل سكنه الحزن".

"شموئيل يهودى عاصر أجداد شوكت ورفض الهجرة إلى إسرائيل".

لم يكن نجاحه متوقعًا، وهذا أنبت الألسنة من حوله لتقطيعه والنيـل منـه، فاعتبروه فقاعة صحفية ليس أكثر، ومهما فعل فلن يخرج من صـفحة الحـوادث، ولكنه مُصِر على الخروج، فحلمه هناك فى قسم التحقيقات. وانتعش داخله الأمـل فور مكالمة رئيس التحرير له، وتهنئته على حواره مع العجوز شموئيل.

حفز نفسه: "إلى العمل يا بطل".

وانكب على تفحص الرسائل المنهالة على بريده الإليكترونى، تـسلل إليـه اليأس فى الليلة الأولى، فلا يمكن أن يكون أى منها حقيقيًا وإلا لكان شـوكت فـى روض الفرج وشبرا والبدرشين والإسكندرية والسويس وأسيوط فى الوقت نفـسه. كاد سواد اليأس أن يتسلل إليه، ولكنه بعد ثلاث ليال من العمل الجاد، عثـر علـى الرسالة التى ترضى حاسته الصحفية وتشعل تحقيقاته. كانت رسالة قصيرة مكتوبة بحروف مائلة، ولكن ما أطار عقله هو أنها موقعة من شوكت نفسه، شـعر كأنـه يعبر إلى وهج ويلمس السماء ويتحرك بين النجوم، وفجأة انغرز خاطر بين أفكاره، شككه فى الرسالة، ماذا لو كانت لعبة من مهرج، أو مصيدة من عدو. فكر طـويلاً وقرر: لن يجزم أنها حقًا من شوكت المختفى، استقر أن ينشرها تحت عنوان "هـل وصلنا إلى حل اللغز؟"

ثم كتب يقول وصلتنى الرسالة التالية، وأنقلها للقراء كما هى:

- أنا شوكت الذى تبحثون عنه ولن أعود حتى تعود الحرية – عقب على الرسالة ماذا تعنى بالحرية، أفدنا يا عم شوكت إن كنت حقًا شوكت.

تفاعل القراء مع الرسالة، الكل يحاول تفسير المعنى الحقيقى للحرية، ولم يحسم الجدل الدائر إلا نشر رسالة أخرى لشوكت، وكانت كما يلي : "أراسل العديد من منظمات حقوق الإنسان منذ سنتين عبر الإنترنت، نحن بعيدون جدًا عن العالم المتحضر، البداية الصحيحة لعودة كل غائب هو الحرية، أنا حر إذن أنا موجود".

حذف الكلمات الجريئة والنقد اللاذع، وحاول أن يخلص نفسه فى كياسة؛ فكتب يقول :

"هنا يا أخ شوكت صفحة الحوادث، والمسألة ليست أننى لا أريد نشر رسالتك كاملة، ولكن لكل مقام مقال، هناك صفحات متخصصة لهذه الأمور، وفى رأيى أنك تهرب من نفسك بالكلمات والجمل الرنانة، وتتسبب فى تعاسة ابنك يوسف، ألا تفتقده يا رجل؟".

وكان هذا الرد سببًا فى فتح النار عليه من كل اتجاه، فاتهمته المعارضة، والصحف الخاصة، والقنوات الفضائية بالجبن وخنق حرية التعبير والعمالة للنظام. وقبل أن يفكر فى مواجهة هذا كله. دخلت عليه صالة التحرير امرأة خمسينية، استفسرت عن مكانه، واتجهت نحوه مباشرة، كانت كالظل لم ينتبه إلى وجودها إلا حين رفع رأسه عن أوراقه، مفتشًا عن جملة أضاعت عقله، ثم اختفت.

بادرته بصوت له وقع الجملة الهاربة "إنه كاذب".

وقبل أن يستفسر سردت له ما يثبت كلامها. وما نشره بعد ذلك فى تحقيق مطول بعنوان "الرسائل الخمسة تكتشف شوكت المزيف".

اسمها سامية، وتملك مقهى للإنترنت، وهوايتها صياغة وابتكار رسائل المحبين، وهى هواية انسانية ونبيلة (أشار إليها كى تختصر كلامها، فأومأت) شوكت الحقيقى لا يجيد التعامل مع الكمبيوتر، ولم يكن لديه بريد إليكترونى حتى شهور مضت، حين صممت له واحدًا.

ولهذا فهو بالتأكيد لم يراسل أية جهة عبر الإنترنت منذ سنتين كما ذكر شوكت المزيف.

ولكن هذا ليس كل شيء، فقد كشفت سامية سر تعاسة شوكت، وهو حب يائس لصديقة صينية، ورغم أنها طوعت مواهبها وصاغت له خمس رسائل، أرسلتها إلى الحبيبة هونج، لعل وعسى، ولكن هونج لم ترد على أى منها. أكدت سامية حزن شوكت، ، ويأسه وربما جنونه فى الفترة الأخير.

وختم الصحفى تحقيقه بنشر الرسائل الخمس والإشارة إلى أن شوكت المزيف هو مجرد طالب ثانوى، تدارك والده المستشار الموقف باعتذار رسمى فى باب الاجتماعيات، كتب ببنط أحمر.

لم يذكر أى شيء عن لقائه بهذا الطالب.

كان بصحبة والده، يفتشان عنه، وجداه فى صالة التحرير. أمره والده بنبرة متجهمة: "اعتذر".

استدار الولد إلى حيث يقف الصحفى، ابتسم نصف ابتسامة وهو يصافحه.

حدجه والده بنظرة قاسية. لم يغير الولد تعبيرات وجهه، ولكنه قال بصوت صبيانى لا يخلو من خشونة طازجة:

"آسف".

(٤)

أحدث نشر الرسائل الخمس ثورة، كما يفعل الحجر فى الماء الراكد.

فقد وضعت كثيرين ممن قرأوها فى مواجهة أنفسهم، فتعرفوا على رغباتهم الخفية ومخاوفهم، واعترفوا بالأخطاء والهفوات، وأبدوا استعدادًا للتصحيح والبدء من جديد. وألهمت آخرين كى يفتشوا عن أحبائهم الحقيقيين، ويغيروا حياتهم الجافة. ولم يقلل من أهميتها كونها لم تنجوا من التحليلات والاتهامات. وكان النقاد والأدباء أكثر الفئات المهاجمة للرسائل ثورة وارتباكًا. فاتهموها بالإغراق فى رومانسية تجاوزها العصر، وعفا عليها الزمن وحذروا الأدباء الحداثيين من محاكاة نسقها أو كلماتها، حتى وإن مستهم؛ لأنها كلمات شيطانية، خطرة ومؤثرة، قد تعرقل مسيرة الأدب والحداثة، وتعود به سنوات للوراء، قبل عصر البنيوية وموت الأيديولوجية والكتابة عن الجسد.

لم يكن ظهور سامية فى الصحف بجوار الرسائل لافتًا، فلم يربط أحد بين هذه المرأة ذات الفم المليء بالنتوءات، والعينان الضيقتان، وبين الرسائل التى خطفت قلب كل من قرأها.

ولكن كل هذا تغير، وازداد الفضول بها بعد استضافتها فى أحد البرامج الفضائية.

تحولت سامية بمجرد أن تكلمت، إلى ظاهرة يصعب التعليق عليها.

كانت تسحر الكلمات قبل أن تنطقها، كأنها تعجنها بأعماق روحها، فتخرج مليئة بالصور المبهجة والعطور والأحلام.

تعلق جمهور المشاهدين بكل حرف قالته كأنه أمل وحياة. وبدا على المذيعة التأثر حين توغل الحديث إلى ندرة الحب وأثر الكلمة على القلوب. ورغم أنها

كانت مذيعة متمكنة، وحاولت جاهدة أن لا تخرج عن موضوع الحلقـــة الرئيـــسى، ولكنها لم تستطع أن تكتم أسئلتها وهواجسها الخاصة عن قدر النساء المـــؤلم فـــى الحب.

صححت لها سامية:

"قدر ولعنة".

- "هل كتبت رسائل أعمق فى حياتك؟"

- "مرة أو مرتين"

- لمن؟

سكتت سامية فبادرتها المذيعة قائلة:

"لا نريد الخوض فى أمور شخصية، ولكن ما سر الرســائل الخمـــس فـــى رأيك؟"

سكتت سامية قبل أن تقول "الصدق "، واليأس... اليأس الشديد"، ثم بدا عليها الارتباك كأنها تسرعت.

عقب إذاعة الحلقة، تلقت سامية عروضًا لتقديم برنامج على الهواء مباشرة، تتولى من خلاله مساعدة المحبين باقتراحاتها البلاغية وتصوراتها لما يجب أن يقال بين فتيان وفتيات الأحلام.

تعاقدت مع إحدى القنوات المحلية، رغم التحذيرات والعواقب التى عـــددها زبائنها فى مقهى الإنترنت، الذين اعتبروا قرارها مخاطرة وإلقاء لبرنامج حيـــوى ومفيد فى الثلاجة.

استقرت على أن يكون اسم البرنامج (حب فى كل العصور دوت كوم)

وطلبت أن يساعدها الصحفى الذى نشر قصة شوكت والرسائل فى الإعداد. وافقت الجهات المسئولة، ولكن إصرارها على وضع صورتى شوكت وهونج فى خلفية الديكور بحجم كبير كان عقبة حقيقية فى طريق الاتفاق النهائى وتوقيع العقود، وبعد سلسلة من التحفظات والاستفسارات والتحقيقات، خلص المسئولون إلى أن إبراز الصورتين فى الديكور، لا يحمل شبهة الإعلان عن شىء أو أحد، مادام شوكت مختفيًا ومحله شبه خال من البضائع، وورشته متوقفة عن العمل.

أما هونج فمجرد أجنبية ذهبت إلى الصين منذ شهور، وقد لا تعود.

(٥)

بينما كانت الحلقة الثالثة من برنامج سامية يذاع على الهواء مباشرة، كانت هونج تستقل الطائرة المتجهة إلى القاهرة، دون أن يخطر ببالها أنها صارت بطلة لقصة حب. كانت تستعيد ذكريات طفولتها، فردت منديلاً حريريًا أمامها، وأخذت تقرأ الكتابة المطرزة فى أنحائه بلغة نساء الصين السرية (النو شو).

أعطته إياه قبل أن تبلغ التاسعة المرأة العجوز التى تقطن حجرة علوية منعزلة من منزل العائلة. وهى المرأة نفسها سليلة التايينج التى كانت تروى لها الحكايات المدهشة، والتى تزوجت جدها الأكبر رغم قدميها الكبيرتين، مخترقة بذلك أعراف زمانها. كان وجودها وسط عائلة متشبثة بأهداب التقاليد مثل علامة استفهام كبيرة، فلم تكن أبدًا واحدة من نساء عصرها اللاتى يتسرب منهن العمر، دون أن يعلمن عن العالم الخارجى إلا بضع أساطير وتكهنات وما يتساقط من أفواه الرجال.

كانت تقضى الوقت بين الكتب والأوراق، تقرأ وتؤلف الأشعار وتخطط لرحلات مع زوجها إلى الغابات والجبال والمدن البعيدة.

لم تتعلم لغة النوشو كى تخفى أفكارها السرية عن زوجها، ولكن كى تتواصل مع نساء مقهورات، وتحاول إقناعهن أن الحرية اختيار ونضال ومجازفة.

ولكن كلامها تبخر ولم يجد صدى، ليس لأن النسوة لم يشعرن به ولكنهن آثرن السلامة. كان الجد الأكبر يحاول أثناءها عما تفعل، فلا فائدة، الحرية تؤخذ، وما لم يردها الغافلون عنها، فلا معنى لأى كلام.

أصر على ربط أقدام بناته وأن يتزوج أبناؤه من ذوات أقدام كالزنابق الذهبية، ليس تزمتًا ولكن لعل أحدهم يقف فى وجهه، ويحرر نفسه من التعاليم. ولكنهم أخذوا بظاهر الأشياء، وتشبثوا بهذه التعاليم، واعتبروها إعلانًا عن ندم دفين، لوقوعه فى حب امرأة لا تناسبه. وتغنوا بحكايات لا تعد، عن الذين تمردوا

وتركوا البيت بتقاليده، وركضوا خلف أحلامهم، هؤلاء كانت نهايتهم مأساوية، وإن لم يتقص أحد صدق هذه النهايات، ولكن تم تخمينها، كأمر مسلم به وقدر لا فكاك منه لمن يتجرأ ويثور على الأسلاف.

استمرت عادة ربط أقدام صغيرات العائلة في سرية، بعد سقوط الإمبراطورية وسَنّ القوانين التي تنهى عنها. حتى صدر فرمان من أحد العرافين الذين جلبهم أحد الأعمام إلى البيت قبل ميلاد هونج بسنوات. دونت العجوز القصة على أطراف المنديل الحريري بلغة النوشو...فقد أتى العم بالعراف في الصباح، واستفسر منه عن ميعاد لربط قدمي ابنته، عبث الرجل بلحيته وثبّت عينيه الزجاجيتين في الفراغ، وبدا كأنه بدخوله بيتهم صار خارج الزمن، ثم قال:

"الرجال أذواقهم اختلفت، لم يعد يعجبهم الأقدام الذهبية الصغيرة، يريدون زوجة تفكر وتعرف الكثير عن عالمهم، وتمشي معهم لمسافات طويلة، إنه اعوجاج في الأذواق، ولكن لابد من مسايرته".

وبذلك نجت ابنة العم وباقي فتيات العائلة من ألم حتمي. ورغم أن أباها اعتبر الأمر خطيئة وتمردًا على الأسلاف، لكنه رضخ في النهاية، وحاول مسايرة الزمن، ولأنه حرم من الأبناء الذكور، بدأ يعد هونج لتكون وريثة معارفه الطبية. اتخذها مساعدًا له، ولقنها أسرار الداء والدواء. تعلمت هونج الكثير وبرعت، ولكن العجوز لم تكف عن سرد الحكايات كلما انفردت بها، كانت واثقة أنها ستستجيب يومًا لنداء قلبها.

فعلت هذا بعد سنوات، واتخذت تنسيق الزهور مهنة لها، ولكنها لم تعش الحرية التي عاشتها العجوز، ولم تملك جرأة الإعلان عن أفكارها مباشرة. ابتكرت الباقات لتختبئ خلفها، وتعبر عن مشاعرها دون خوف أو خجل. وتقول لمن يسألها إنها فقط تعكس مشاعر زبائنها، وتنقلها في أمانة، ولكن الزهور لم تكن بالنسبة

إليها مجرد قناع، فقد أنقذتها فى لحظات كثيرة من الانكسار والأسى الذى يـسرى فى جينات النساء.

***

هبطت الطائرة فى مطار القاهرة فى الثانية بعد منتصف الليل، طوت هونج المنديل واستعدت للهبوط، لفحها هواء الليل المنعش.

(٦)

انفرد نورى به فى الليلة السابقة للعرس، ما الـذى كـان يحـاول قولـه ؟ راوغ بكلمات كثيرة افتقدت الصراحة والوضوح، لم يفهم رمزى مراده، ولكنه كان صبورًا. لـو التقى به قبل الحرب لتصرف بطريقة أخرى وتعامل معه على أنه خراقة لا أكثـر، أمـا الآن فهو مندهش من دموعه وقبلته الدافئة التى طبعها على وجنته.

حاول استبقاءه، كان مستمتعًا بالحياة لحظات فى كنـف أب، كـأن وجـوده يخفف عنه الذكريات الرهيبة التى تلاحقه.

ولكنه مضى وتركه وحيدًا. ليعيد السؤال الذى لازمه منـذ رجوعـه مـن العراق، هل تغير العالم أم تغير هو؟

لا إجابة، لا شئ سوى الأسى والصفير الذى فى رأسه والأحداث التى ظـن أنها توارت. لكنها باقية على حالها فى أعماقه، حية كأنها حدثت منذ دقائق، تتكرر بلا نهاية، مفجرة داخله الأحاسيس نفسها والخوف نفسه، والرغبة فى النجاة.

قبل الانفجار كان مسترخيًا داخل المبنى، فى انتظار الغذاء، وفجأة تبدل كـل شىء. هناك عراقييون يتظاهرون ناحية البوابة الرئيسية، ويطوقون المبنى بأجسادهم واللافتات والأصوات الغاضبة. الجنود المرتزقة يسبقون الجميع إلى السطح، تتـبعهم قوات التحالف واثنان من المارينز، يخوضون مثله الحرب لأول مرة.

تولى المرتزقة القيادة، كانوا أكثر عددًا من القوات النظامية، تلقـوا تـدريبات معقدة فى معسكرات إحدى الشركات الخاصة الموردة للجنود فى نـورث كارولينـا. كانوا مخلطون تشيليون، فلبينيون، هندوراس وأمريكيون وجنسيات أخرى لم يتبينها.

بدوا أكثر تعطشًا من الآخرين للحظات السعيدة، استلهموها من طفولة بعيدة أو حلم داعبهم ذات يوم. لم تهزهم الجثث ولا الحكايات المأسوية.

كانوا يقتلون وهم يضحكون، ويتعاملون مع كل لحظة على أنها الأخيرة.

كان مجرد تعاقب الوقت وبقائهم أحياء يشعرهم بالامتنان. اكتشف رمزى خلف قسوتهم، قصصهم الرومانسية والحزينة. تناقلوا سردها وسط الدخان الكثيف وبين صرخات الضحايا.

كان كل منهم على يقين أن قصته سوف تصل للآخرين، رغم اختلاف الموطن واللون والجنس والخيالات السرية...

مرت القصص بينهم، متحدية حاجز اللغة أيضًا، كانوا يتفاهمون فى بساطة، كأنما بينهم معاهدة سلام وتواصل، دون أن يتناقض ذلك مع كونهم قتلة محترفون. بدوا لرمزى شديدى الرقة والوحشية، ولكن ما اعتبره رمزى تناقضًا، اعتبروه دعابة أخرى تضحكهم.

التقط رمزى قصة أحد التشيليين، وتابع تطورها من حركات الرجل وإيماءاته وبضع كلمات إنجليزية نطق بها.

كاد تعلقه بالقصة أن يودى بحياته، فلم يكن مدربًا مثلهم أن يقتل وهو يتسلى بالحكايات، ولكن الطلقة مرت إلى جواره ولم تصبه.

صم أذنيه عن قصص أخرى خوفًا من الموت.

ولكن قصة واحدة تكفى، فقد ملأت روحه وخياله وخفزته على إطلاق النار كى يتخلص من سطوتها.

اختلس النظر رغمًا عنه إلى الصورة التى يعلقها التشيلى حول رقبته، إنه ابنه الصغير الغائب عن الوعى الآن فى إحدى المستشفيات الأمريكية. لقد تعهدت شركة بلاك ووتر التى تعاقد معها كمحارب، متعدد المواهب أن تتولى علاجه.

كان رجلاً متعدد المواهب بالفعل، فهو قناص وخبير متفجرات وعميل مخابرات سابق.

وضع مواهبه فى الماضى لخدمة ديكتاتور. كل ما فعله أنه حرر نفسه، فهو الآن يقتل لحسابه الخاص، لا لقمع ذوى الأفكار المناهضة للحاكم، لم تهمه الأفكار فى أى وقت، يمكن لأى أحد استئجاره حتى أصحاب الأيديولوجيات والفلاسفة.

انزعج رمزى لأنه يقف جنبًا إلى جنب مع هؤلاء. قالوا له قبل الذهاب ستحارب من أجل تحرير شعب، وحماية وطنك الذى تحبه من هجمات أخرى كالتى حدثت لبرجى مركز التجارة العالمى، ولميناء بيرل هاربور فى الأربعينيات.

تدافعت الأسئلة إلى رأسه، هل يحارب التشيلى من أجل إنقاذ ابنه، هل للآخرين قصص مماثلة تجعلهم يحترفون القتل.

لم يسأل ولكن الإجابة أتته والرجل يحدق بعينيه الزجاجيتين فى ضحيته القادمة.

"أظننى احترفت القتل قبل ذلك بكثير، لا أذكر متى ولكننى أذكر أننى التقيت بالكثير من الوحوش الذين يستحقون الموت"

الدخان كثيف، والعراقيون يقاتلون فى شراسة، ويتساقطون، ومئات يتوافدون إلى المعركة كأنما تنبتهم الأرض.

إنها حرب حقيقية، لا ورود ولا تهليل ولا شىء سوى الكراهية. كان رمزى يطلق النار كى يسكت أفكاره، وآملاً فى أن ينجو، ويركض ولو مرة واحدة فى فضاء فسيح مشمس كالذى أخذته إليه أمه ذات يوم فى طفولته.

يصيح التشيلى "هيا"

ويشير إلى هليكوبتر تقترب من السطح، تابعة لشركة بلاك ووتر. يـــركض الجميع نحو النجاة، رمزى واثنان غيره من المارينز، وقوات التحالف والمرتزقة.

وفجأة يدوى صوت رهيب ويشعر أنه يسقط فى الظلام.

لم يدر رمزى ما الذى حدث ولا كيف نجا. كان يفيق للحظات ليجـــد نفـــسه فوق محفة، صاعدًا أو هابطًا، أو متجهًا إلى غرفة مظلمة.

أحيانًا تلوح له رابحة من الظلمة بعينين كعمودى دخان، وتهمس له بكلمـــات لا تبقيها ذاكرته.. وأحيانًا أخرى كانت تظهر له الجثث المتفحمة المعلقة فوق نهـــر دجلة، التى رآها فور وصوله إلى العراق، وتشير إلى شاب عراقى يمـــسك لافتـــة عليها جماجم وعظام كتب عليها بالإنجليزية (العراق مقبرة الأمـــريكيين). كانـــت الجثث تسخر من سذاجته، مؤكدة أن تجربة الموت أزاحـــت عنهـــا الغـــشاوة، وأن الحقيقة التى يتبادلها الموتى، وخاصة الذين علقت جثثهم فوق الكبارى، أن أمريكـــا هى مقبرة الأمريكيين فى هذه الحرب. واثبات ذلك يتطلب عودة أخرى إلى الحياة، وهو غير متاح الآن، لأن المعجزات قليلة، وحدوثها لم يعد مؤثرًا كالسابق، ولذلك فهم ينتظرون فوق الكبارى المزيد من الجثث المتفحمة.

***

قضى شهورًا تحت وطأة المسكنات والمخدرات، متنقلا بين غرف العمليات والإفاقة. وحين استطاع أن يفتح عينيه لأول مرة لم يتعرف على العالم.

بدا كل شيء مخبأ، مليء بالأسرار أو على الأقـــل يتحـــرك خلـــف حائـــل زجاجى. سأل نفسه أين هو ومن يكون ؟.

ثم انتابه إحساس أن آلاف الأقدام داسته. كان جسده يئن وروحـــه تحـــاول الإفاقة، ولكن الحائل الزجاجى ازداد سمكًا، ولم يعد يفهم حركات الشفاه ولا معنـــى

الدموع، وكلما حاول تفسير الأشياء من حوله، كان الظلام يبتلعه مرة أخرى في جوفه.

شعر أنه بحاجة إلى مساعدة، وأن يتكئ إلى ساعد يمت لعالمه القديم بصلة وثيقة.

وجد في جيسيكا العون والساعد. اتكأ عليها بشدة ولكنه لم يستعد نفسه، كان كل شيء غامضًا وغريبًا ومدهشًا كأنه يرى العالم لأول مرة، ومثل طفل لا خبرة له، بدأ يكتشف الأشياء ويندهش ويبكي ويضحك. ويتعلق بالتفاهات وينسج خيوطًا طازجة مع العالم ويصنع مفاتيح جديدة لعقله وقلبه.

لم يبقى من رمزى القديم سوى ما ظل في عقل جيسيكا.

هل كان يتشبث بها، تشبثه بماضيه؟

كان رمزى الجديد بلا وجه ولا ذكريات ولا مشاعر قوية. لا يخيفه شيء ولا يردعه أحد، ولا يعرف من أين استقى جيناته، ولا يعد بشيء، ولديه قناعة أن الأحلام تشقى صاحبها لأنه غالبًا ما يصير عجوزًا دون أن تتحقق.

أما رمزى الذى تتحدث عنه جيسيكا فحياته مليئة بالكبوات، وهو ضحية خياله الذى صور له أن الخلاص في الالتحاق بالجيش، بعدها ستتفتح الحياة أمامه.

فأى رمزى يريد؟

كان زواجه من جيسيكا هو الحل المدهش لأزمته ومحاولة صلح بين رمزى الذى خلفته الحرب ورمزى الذى انضم إلى المارينز ليتخلص من نقاط ضعفه ولكنه بالمصادفة وجد نفسه يحارب.

(٧)

انقلب المحل إلى مكان مهجور، ما الذى حدث ؟

أحست هونج بانقباضة، لا أحد هناك سوى عجوز يتكور على نفسه فوق أريكة من الأربيسك. مالت عليه وسألته. تحرك يمينًا ويسارًا كما يفعل الظل دون كلمة.

– أين صاحب المحل

لا رد.

هناك صوت زجاج يتكسر، اكتشفت بعد قليل أنه صوت امرأة مبهرجة كانت تقترب منها.

هزت المرأة خصلاتها الذهبية وقالت :

"أنت هونج أنا سعيدة بالتعرف عليك أخيرًا، أعمل قارئة للشفاه"

اصطحبتها قارئة الشفاه إلى مقهى قريب، شعرت هونج أن بعض رواده يختلسون النظر إليها.

هزت قارئة الشفاه رأسها:

"لا تهتمى هذا يحدث دائمًا مع المشاهير"

لم تفهم هونج كلمة مما قالت المرأة التى ظلت تتحدث نصف ساعة متواصلة، فاردة أمامها قصاصات صحف، وملاحظات دونتها، واستنتاجات توصلت إليها. ختمت حديثها بأن أعطتها الرسائل الخمس.

قرأتها هونج مرات دون أن تصدق أنها كتبت لتعبر عن شوكت. كانت الجمل مدهشة، أشعلت داخلها رغبات غير محددة وشغف بالحياة وفجأة انقسم شوكت فى خيالها إلى شخصين. أحدهما عرفته على الفور بصلعته وضخامته

ومشيته الكاريكاتورية وضحكاته التى لا تنتهى ودعاباتـــه الـــسخية وإصـــراره أن يخرج الهموم من رأسه وحياته.

بالطبع رأته يتوقف بضع دقائق عند المصائب وينحنى، ليس ألمًا ولكن مـــن كثرة الضحك. وخلف كل هذا يقبع شـــوكت الآخـــر بـــضعفه وتمـــرده ورغباتـــه وأحلامه. كانت الرسائل الخمس هى الشرارة التى أطلقت شوكت الخفى من قمقمه، وتلك هى خطورتها وروعتها، فهى تطلق سراح كل مقهور خفى داخل من يقرأها.

كانت الكلمات تتسلل إليها وتبدلها، فتحس أنها لن تعود كما كانت.

فجرت داخلها التطلع للمستحيل والأسى لأنه مستحيل.

ودعت قارئة الشفاه وهى تائهة، على وعد أن تستقبلها فى منزلها فى اليـــوم التالى ليواصلا الحديث.

وفى المساء جلست هونج أسفل شجرة السنط. كانت تحاول ترتيب ما حدث لها منذ الصباح. بدت لها قارئة الشفاه مثيرة ومضحكة ومبالغة كثيرًا فى توقعاتها. توقفت عند الرسائل، كانت الشيء الرائع فى كل ما حدث. رددت فقرة قصيرة من فقراتها تشع نورًا وصدقًا وشجنًا، دون أن تتوقع ما حدث بعد ذلك، ففى منتـــصف الفقرة عبرت لحظة غامضة، وانفلت منها زمام العقل، وتحكمـــت فيهـــا المـــشاعر بقسوة ووحشية وواجهتها.

"أنت تحبينه، ليس الآن ولا منذ عام ولكن منذ الأزل"

بدأت تتصرف عكس طبيعتها، فتحت اللاب توب، وأرسلت الرسائل الخمس لنورى، لا لتخبره بتفاصيل ما حدث ولكن أملاً فى إثارة غيرته وإعلامـــه بحقيقـــة مشاعرها نحوه، كانت لا تزال تراوغ وتغلف اعترافها بالحب بأســـاليب نـــسائية، وتحاول تنفيذ القاعدة البدائية التى تناقلتها الجدات، فأفضل طريقـــة لتحريـــك قلـــب رجل هو ظهور رجل منافس فى الصورة.

أغلقت اللاب توب وهى تتمنى أن يقرأ نورى ما بين السطور ويعرف كـــم تحبه.

(٨)

كانت رسالة نورى التالية مختصرة "تزوج رمزى من جيسيكا، أقنعتهما بقضاء شهر العسل فى مصر، نحن قادمون قريبًا"

لم يفصح بالتحديد عن موعد قدومه. وهذا جعلها أكثر شكًا وقلقًا فى أنه قد لا يعود. لم يعد يبقيها فى القاهرة سوى البيت.

ولكن لماذا لم يعلق نورى على الرسائل أو يستفسر عن مصير شوكت. هل هى الغيرة أم الشك أم اللامبالاة.

لم تجزم بشيء، فنحن نتصرف أحيانًا عكس مشاعرنا كى نتحصن. هكذا أخفى شوكت ألمه وهكذا فعلت فى مواقف عديدة. كانت قارئة الشفاه قد وصلت منذ نصف ساعة. وهى تعبث بخصلاتها الآن وتترجم خلسة مشاعر هونج. كانت تفكر فى العقبات التى قابلت روايتها حتى الآن، ولا يقتصر الأمر على ورقتين مجهولتى الصاحب وجدتهما فى محل شوكت. واختفاء بطلها الرئيسى بشكل غامض وفجائى، ولا محاولاتها الانتقاء من بين عشرات الشخصيات والأشباح الذين توافدوا عليها طمعًا فى أن يكون لهم دور مؤثر فى الرواية. ولكنه شعور خفى أن روايتها ستبدأ من البيت، بتصميمه الشرقى وصخوره وشلالاته وزهوره وبحيرته التى يتوسطها تمساح مرمرى.

فمنذ أن دخلته انفتح أمامها عالم الحكايات السحرى. ما سره يا ترى؟

بادرتها هونج قائلة: "هذا البيت....."

انتبهت إليها قارئة الشفاه، فقد بدأت الأحداث الحقيقية.

المؤلف في سطور

أولاً : إصدارت أدبية

- يحدث أحيانًا...... (مجموعة قصصية) .... دار الأمين (١٩٩٨)
- العين السحرية.....(مجموعة قصصية) .... مركز الكتاب للنشر (٢٠٠٠)
- لا ظل ولا صدى (رواية) ....،........مكتبة مدبولى (٢٠٠٢)
- نقط فوق الحروف (حوارات سياسية) .... مركز الكتاب للنشر (٢٠٠٣)
- يا قلبى لا تحزن (رواية) دار الهلال ٢٠٠٥

ثانيًا: إصدارات علمية

** الصحة النفسية للطفل والمرأة دار المعارف ٢٠٠٥

** المراهقة ومشاكلها دار المعارف ٢٠٠٧

المراجعة اللغوية: أحـــمـــد نـــزيـــه
الإشــراف الفنى: راندة عبد الكريم

حاول استبقاءه، كان مستمتعاً بالحياة لحظات فى كنف أب كأن وجوده يخفف عنه الذكريات الرهيبة التى تلاحقه. ولكنه مضى وتركه وحيداً. ليعيد السؤال الذى لازمه منذ رجوعه من العراق، هل تغير العالم أم تغير هو؟

لا إجابة، لا شىء سوى الأسى والصفير الذى فى رأسه والأحداث التى ظن أنها توارت. لكنها باقية على حالها فى أعماقه، حية كأنها حدثت منذ دقائق، تتكرر بلا نهاية، مفجرة داخله الأحاسيس نفسها والخوف نفسه، والرغبة فى النجاة.

